كتاب
العربية
الترجمة (٢)

إيلينا ماروشياكوفا
وفاسلين بوبوف



تاريخ الغجر

ترجمة
محمد المغربي

مراجعة
د. أحمد البنيان

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الغجر

الغجر في الدولة العثمانية

كتاب العربية
الترجمة (٢)

ⓒ المجلة العربية ، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ماروشياكوفا ، إيلينا
تاريخ الغجر. / إيلينا ماروشياكوفا ؛ فاسلين بوبوف ؛ محمد المغربي .- الرياض ، ١٤٣١ هـ
١٥٢ص ؛ ١٤×٢١ سم
ردمك: ٢-٠-٩٠١٤١-٦٠٣-٩٧٨

١- الغجر أ. بوبوف ، فاسلين (مؤلف مشترك) ب. المغربي ، محمد (مترجم) ج.العنوان
ديوي ٣٠١,٤٥١١١٤٧٩ ١٤٣١/٧٤٧

رقم الإيداع: ١٤٣١/٧٤٧
ردمك: ٢-٠-٩٠١٤١-٦٠٣-٩٧٨

إيلينا ماروشياكوفا وفاسلين بوبوف

تاريخ الغجر

الغجر في الدولة العثمانية

ترجمة

محمد المغربي

مراجعة

د. أحمد البنيان

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كتاب العربية

الترجمة (٣)

كتاب
العربية
الترجمة (٣)

الأسعار: ١٠ ريالات أو مايعادلها

www.arabicmagazine.com

لمراسلة المجلة على الإنترنت

info@arabicmagazine.com

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

تليفون: 966-1-4778990 فاكس: 966-1-4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المحتويات

مقدمة ـ الترجمة العربية

كنّا نبحث في المعاجم عن كلمة (غجر)، فلم نجد لها مكاناً يذكر، إذ تفرّقت مثل تفرّق أصحابها، فهم قوم عابرون في المكان والتأريخ، كما ضاعت الكلمة لتعدد مسمّيات أصحابها، فهم: (الدوم، والزّط، والسبابجة، والقرباط، والكاولية، والنّور، والصلبي...)، وتلك حال قوم يعيشون في أماكن متعددة ومتلونة، ويمتهنون مهناً حرفية عديدة، أما لغتهم، فهي لغة الشعوب التي يعيشون بجانبها،، أو بالقرب منها، ففي بلاد العرب عرفت لغتهم بـ«العصفورية، والدومارية)، وهي لغة شفهية غير مكتوبة، وتبدو كأنها خليط من الفارسية والتركية والهندية والعربية (المزيني، الغجر في بلاد العرب)، وهي لغة شبه مندثرة لتفرق أهلها في هذه البلاد، أما في البلدان الأخرى، فنجد أن بعض الباحثين، ومنهم من خطّتا هذا الكتاب (إيلينا وفاسلين) يقولون إن لغات الغجر قد انقسمت إلى فرعين منفصلين هما:

- متحدثون باللهجة: بن، وهم مجموعة «الروم».
- ومتحدثون باللهجة: فِن، وهم مجموعة «اللوم» ومعهم أيضاً «الروم».

على أن هذه اللهجات تختلط بعضها مع بعض إذا ما اختلط أهلها شمالاً أو جنوباً.

إننا ونحن ننظر إلى بعض الكتب التي سجلت شيئاً عنهم، أو البحوث التي كتبت عن تأريخهم، نجد أن اللاحق منهم يتبع السابق، وتلك حال من يبحث في: التأريخ الشفوي، إذ تتلقفه الألسن بلا دليل يذكر، ولذا

نجد أن بعض الباحثين يوفّر على ذاته، فيتجه لما دوِّن عنهم، ويسجّله، ولذا، فإن تأريخهم كان قد دُوِّن بواسطة الرّحالة الأوروبيين، إذ وجدوا صعوبة في تدوينه، مما حدا بهم الأمر إلى التوجه للبحث عن الوثائق المدوّنة خاصة لدى الدولة العثمانية، فيأخذون منها الأسماء، والضرائب التي كانت تفرض عليهم، وأماكن تنقلاتهم... ومن هنا، فإن تأريخ (الغجر) يشوبه شيء من القلق، إذا ما توافرت المصادر الأساس.

إننا نعتقد أن التأريخ لا يتجه إلا لتدوين من كان له أثر في الواقع الحياتي، (والغجر) بطبيعتهم، وواقع حياتهم لم يسهموا في صنع التأريخ كباقي الفئات والقوميات الأخرى التي عايشتها، أو عاشت معها، إلا أنه قد يستعان بهم، وعند هذه الحال يسمون بـ«المرتزقة»، وهؤلاء لا مكان لهم أيضاً، فهم كالأجير، الذي يأخذ أجره، ثم يعود لمكانه.

إنهم متفرقون، فتبعثر تأريخهم كما تبعثروا، ولذا نجد أن بعض الأساطير تذكر أن دعوة آدم -عليه السلام- تلك التي لحقت بابنه (قابيل)، والدعاء عليه بالشتات والترحال وعدم الاستقرار قد لحقت بهؤلاء، ولذا يقال إنهم من أولاد (قابيل)، وأنهم في الأساس كانوا قبائل تجمعت على شواطئ (الهندوس) ثم تفرقوا، وأن الأحفاد قد امتهنوا المهن الوضيعة، وذلك خلاف جدودهم الذين عرفوا أسرار البرونز، وأتقنوا صنع المعادن.

إن ما يدعو إلى افتقار المعلومة والكتاب عن هؤلاء عدم وجود تأريخ يدون لهم حياتهم، ولذلك كان تراثهم شفهياً، ينتقل من الأب إلى الإبن، ولا يمكن معرفة شيء عنهم سوى ما يقبل الغجري الكشف عنه،

ولذلـك يبدو أن أبناءهم كانوا ينفرون من تدوين أخبارهم، ولذا، فإن أي كتاب يتحدث عنهـم، وفي أي مكان من العالـم سيغني عن الكتب الأخرى التي تتحدث عنهم في جزء آخر من هذا العالم.

إن هذا الكتاب الذي ننشـره مترجماً إلى العربية نشـعر أنه قد يضيف شـيئاً لتأريخ (الغجر) الذين نعرفهم في بلادنا العربية بأسـماء متعددة، وهو تأريخ ينسـحب على من يعيش في هذه البلاد أو البلدان الأخرى، إذ يركز الضوء على ما له علاقة بهم أيام الدولة العثمانية التي استولت على معظم أجزاء الكرة أيـام زهوها وقوتها، وكان (الغجر) جزءاً من الأناس الذيـن عاشـوا في فلكها، ولذا نجـد أن المؤلفتين اعتمدتـا على: (الوثائق العثمانية) التي دوّنت الأسـماء، والمهـن، والأماكن، وعلاقتهم بالدولة، وعلاقة الدولة بهم، كما أن هذا الكتاب يكشف شيئاً عن بعض المعلومات السكانية التي تتعلق (بالغجر) في ظل هذه الإمبراطورية.

إنه كتاب يعتمد على الوثائق الرسمية، لكنه مع ذلك يفصح أيضاً عن: عدم قدرة هذه الوثائق على كشـف الحقيقة التأريخية الكاملة..، وهذا ما أكّدنا عليه سـابقاً، وهو أن تأريخهم شـفهي، يتداول عبر الأفواه، فضاع ضياع هذه الأفواه.

إننـا نعتقـد أن هـذا الكتاب، ومـع اعتراف مـن خطـه بصعوبة وجود المعلومة الصحيحة سـيكون إضافة طيبة للمكتبة العربية علّ الأيام تظهر لنا باحثاً عربياً جاداً يشـكف لنا تأريخ هؤلاء القوم، فالحياة لا تطيب إلا بتدوينها.

المجلة العربية

الغجر في
الإمبراطورية العثمانية

مقدمة الكتاب

يعود الوجود الروماني -متمثلا في البلقان- كعنصر من الجزء الأوروبي للإمبراطورية العثمانية إلى قرون مضت ولم يكن مصادفة أن يطلق على هذا الإقليم -غالباً- الموطن الثاني للغجر، إذ من هذا الإقليم انطلق الغجر باتجاه الغرب حاملين معهم نماذج الثقافة البلقانية وعاداتهم.

ومن المُحال أن نقوم بشرح أو تفسير خصائص إقليم البلقان دون أن نضع في اعتبارنا دور الإمبراطورية العثمانية الذي كان له تأثير عميق طوال خمسة قرون على التطور الثقافي والتاريخي للإقليم، بما في ذلك الدول التي قامت في القرنين التاسع عشر والعشرين والتي بنتْ عقيدتها الفكرية على مناهضة هذه الإمبراطورية.

وهذا الكتاب يلقي الضوءَ على شعب البلقان حيث تمركزت نسبةٌ كبيرة من الغجر في إطار الإمبراطورية العثمانية داخل إقليم البلقان، وهناك دليلٌ ساطعٌ على ذلك وهذا أول كتاب يُنشَر عن تاريخ، وعرقية البنية الثقافية والاجتماعية للغجر في إطار الصورة العرقية العامة في الدولة العثمانية استنادا على المصادر الوثائقية ومن أهمها، سجلات الضرائب المُفصلة، والقوانين الخاصة، وسجلات الحرفيين «النقابات» ووثائق المحاكم، كما ضم الكتاب في عرضه مذكرات دونها الرحالة الأجانب في كتاباتهم عن الغجر، وعن التنظيم الاجتماعي السائد بينهم، وطرق معيشتهم وثقافتهم كل ذلك تم استطلاعه، فشمل كماً كبيراً من المعلومات المجهولة

التي تلقي الضوء على المجتمعات الرومانية التاريخية المبكرة.

فهـذا الكتاب يسـهم بنصيب في عرض تاريخ شـعب البلقان، كما أن وجود (نص بعدي) لهذا الكتاب يساعد القارئ على فهم الوضع الفريد لروما في يوغوسلافيا السابقة. ليتراءى له ما خلفته التركة العثمانية من آثار واضحة في المعاناة التي يعيشـها الغجر في يوغوسلافيا السابقة حتى اليوم.

الفصل الأول

البلقان ـ الوطن الثاني للغجر

غالبا ما يصرح الخبراء بشؤون الغجر أن إقليم البلقان هو «الموطن الثاني للغجر» ويرتبون ويصنفون «اللهجة الرومانية» ـ لغة الغجر ـ على أنها لغة هندية وهذا التأكيد على الدور المهم الذي لعبته أرض البلقان في تشكيل تاريخ وثقافة ولغة الغجر ليس مجرد تعبير متفق عليه فقط، وإنما هو تعبيرٌ مبنى على بحثٍ علمي جاد. ومن خلال رحلتهم من أقصى الهند إلى وسط أوروبا وغربها، استقر الغجر «الرومانيون» في شبه جزيرة البلقان لقرون عديدة، وكما سنناقش لاحقا فهناك نظريات عديدة حول وقت وصولهم لأرض البلقان، تتراوح فيما بين القرنين التاسع إلى الحادي عشر الميلادي، ولكن حيث إنهم بدؤوا دخول غرب أوروبا خلال القرن الخامس عشر فقط، فلابد أنهم عاشوا في إقليم البلقان مدة خمسة قرون على الأقل، وكان لذلك تأثير واضح على تطوير الخصائص الرئيسية للغجر كجماعة بشرية وعلى ثقافاتهم بما في ذلك اللغة بالإضافة إلى أن أعدادا كبيرة من الغجر قد بقيت في البلقان حيث أقاموا فوق أرض الإمبراطورية العثمانية وولاياتها خاصة عند مراكز نهر الدانوب لمولدافيا وفالاتشيا، ومن ثم في الولايات التي أقيمت داخل حدود الإمبراطورية السابقة للدولة العثمانية، وهي ولايات ظلت على ارتباط بتلك الإمبراطورية، أما في العصور الحديثة فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم عبر العالم بما في ذلك ما يطلق عليه الغزو الكبير لطارقي النحاس «الكالديراري» خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مُشَكّلةً موجات الهجرة من يوغوسلافيا السابقة في ستينيات القرن العشرين

حتى الثمانينيات، كالهجرة إلى رومانيا التي أعقبت تغيرات عام ١٩٨٩ في أوروبا الشرقية وتلك التي يمثلها اللاجئون في البوسنة وكوسوفو، وقد حملوا معهم آثارا ملحوظة للتلاقح الثقافي واللغوي مع الشعوب الأخرى التي سيطرت على إقليم البلقان.

ومن المستحيل أن نقوم بشرح أو تفسير خصائص إقليم البلقان دون أن نضع في اعتبارنا دور الإمبراطورية العثمانية الذي كان له تأثيرٌ عميقٌ طوال خمسة قرون هيمنت فيها على إقليم البلقان وعلى أشكال التطور الثقافي والتاريخي هناك، ويضم إلى ذلك ولايات أقيمت خلال القرنين، التاسع عِشر والعشرين، أسست عقيدتها الفكرية على مناهضة هذه الإمبراطورية عند انعتاقها من إطارها السياسي محاولة ـ ليس بنجاح دائم ـ الانفصال عن تقاليدها الثقافية.

وسوف يركز هذا الكتاب على الغجر الذين كانوا يعيشون في منطقة البلقان ـ كما سيتضح فيما بعد ـ حيث كانت النسبة الكبيرة من الغجر أثناء الحكم العثماني تتركز هناك، ومن هنا كان وجود دلائل تاريخية لها اعتبارها في هذا الإقليم ذات علاقة وثيقة بالغجر، والأكثر من ذلك كان للمقاطعات العثمانية ـ في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حالات إدارية مختلفة، وعليه كان لها بنية اجتماعية وسياسية مغايرة أيضا أدت إلى ظهور أحوال مختلفة عاش في ظلها الغجر تختلف عن تلك التي سادت البلقان، وأخيرا وليس بآخر على المرء أن يتذكر ـ بعكس ما هو موجود في البلقان ـ أن العدد الصغير نسبياً من أولئك الرُّحّل الحرفيين في المقاطعات الأخرى لم يكونوا في عداد «الفئة الرومانية»، ولكل تلك

الأسباب قررنا في دراستنا الحالية أن نسلط الضوء على الغجر المستقرين في منطقة البلقان خلال حكم الإمبراطورية العثمانية.

كما نركز في كتابنا على تقديم المادة العلمية من مصادرها بدلا من تقديم رؤيتنا الشخصية ويستهدف الكتاب ـ بقدر الإمكان ـ تقديم صورة حقيقية لحياة الغجر في ذلك الإقليم خلال تلك الفترة، وقد قادتنا الكثير من المحاولات السابقة التي قام بها الآخرون لتناول هذا الموضوع بالأخص ثم لبعض المطبوعات العامة حول مسألة الغجر إلى الإيمان بأن اختلاف رؤية المؤلفيّن قد تؤدي لتشويه الحقائق، خاصة إذا ما حدث سوء فهم أو تقصير للدراسة، إذ لم يكن الغجر في إقليم البلقان معزولين عن البيئة الثقافية والاجتماعية المحيطة، بل كانوا ـ على العكس من ذلك ـ جزءا متكاملا مع تلك البيئة ومن ثم تأثروا بعمق بثقافات الجماعات المتعددة داخل الإقليم، وكانت الإمبراطورية العثمانية عاملا أساسيا في تطوير جماعات الغجر، وتعد دراسة وفهم هذه النقطة بالذات هدفا أوليا في إصدارنا لهذا الكتاب.

ويثير أي مدخل لتاريخ الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية بعضا من المشكلات الجادة والتي لا يمكن تجنبها في شرح الواقع الاجتماعي والثقافي والتاريخي غير المألوف ـ عامة ـ للقارئ الأوروبي، وعلى أي حال فإن تقديم شرح مفصل لكل المصطلحات العثمانية الصادرة عن أجهزة الإدارة في الإمبراطورية، والنظام الاجتماعي والمؤسسات الدينية، والالتزامات الضريبية والرتب العسكرية مع تطورها خلال خمسة قرون سيؤدي لظهور كتاب مستقل عن الإمبراطورية العثمانية وليس هناك نقص الآن

في توافر مثل هذه الكتب، وقد عملنا على أن نستخدم الكثير من تلك المصطلحات العثمانية الأصلية مع الكلمات المكتوبة بالإنجليزية حسب نطقها بلغتها الأصلية حيثما أمكن، وقدمنا شروحا قصيرة لذلك في متن الكتاب بينما طمحنا في الحالات الأخرى الباقية أن يتضح المعنى أمام القارئ من خلال السياق الذي وردت فيه تلك المصطلحات، أما أولئك القراء المهتمون بالمعاني الدقيقة فيمكنهم الرجوع إلى المعاجم وإلى كتب الأدلة التاريخية المتخصصة في الإمبراطورية العثمانية، وتحتوي قائمة المراجع آخر الكتاب على كتب شاملة عن هذا الموضوع. وقد ساهم زميلنا وصديقنا دونالد كيتريك في إبداع هذا الكتاب بنسبة كبيرة، إذ ساعد منذ البداية بالأسئلة والتعليقات والملاحظات المهمة، مع إمدادنا بأدبيات الموضوع المعروفة علمياً، التي كان من المحال العثور عليها في بلغاريا، ثم قام بتحرير الترجمة الإنجليزية، ونحن نود أن نعبر عن شكرنا الخالص والعميق لتلك المساعدة القيمة.

كما نوجه شكرنا ـ أيضا لمترجمة هذا الكتاب أولجا أبو ستولوفا التي بذلت جهدا كبيرا في تيسيره للقراء الناطقين باللغة الإنجليزية، ونشكر استرد فورن هيلينج في مركز دراسات غجر أوروبا الشرقية في باريس لعنايتها باختيار وسائل الإيضاح اللازمة للكتاب.

وقد وضعنا الألفاظ الأجنبية في حروف مائلة عند ورودها لأول مرة وإذا لم يتم شرحها وسط النص أو لو وردت مرات متوالية، فسوف يجدها القارئ في القاموس الملحق بالكتاب، أما أسماء الأماكن التي وضع معها علامة فلها أسماء حديثة ذكرناها في نهاية الملحق.

الفصل الثاني

بداية هجرات الغجر

مـازال العديد من الأسـئلة التـي لا تجد إجابة تواجه الدراسـات العلمية فيمـا يتعلق بأصل الغجـر الرومانيين، مثل أسـباب هجـرة أجدادهـم من الهند وتاريخ رحيلهم، والمراحل المبكرة لهجرتهم نحو أوروبا.. إذ تتعدد التقديرات المفسـرة لبدايات هجراتهم من الهند وتوزعهم في شتى أنحاء العالم بصورة كبيرة تتراوح من القرن الخامس وحتى القرن الخامس عشر، والأسـاس الذي يعود إليه التاريخ المبكر لذلك هو الدليل المعروف المأخوذ من كتابات المؤرخ العربي حمزة الأصفهاني في القرن التاسع ثم من الشاعر الفارسي الفردوسي في كتابه «ملوك عام ١٠١١»، وكلا الكاتبين يعيدان شـرح صور مختلفة لقصة الشاه الفارسـي جهرام جورجيا (٣٨ـ ٤٢٠) وفي القصة نقرأ «أن احد ملوك الهند أرسل ـ كما يقال ـ للشاه مجموعة كبيرة من الموسيقيين (ممن يسمون الروي أو اللوري) مع عائلاتهم، وهم مـن غادر معظمهم فـي تاريخ لاحق البلد وجالوا عبر العالم ووفقاً للعديد مـن المؤلفـات فـإن الأحداث التي تم سـردها -رغم أنها نُقلتْ في شـكل أسـطوري- قد تأصلت في الحقائق التاريخية ويمكن تناولها للإشـارة إلى مراحل أساسية في هجرة الغجر.

وترتبط مشكلة تحديد بداية هجراتهم مباشرة بالمحاولات التي استهدفت اسـتبيان أسـباب تلك التحركات من خلال ارتباطها بأحـداث تاريخية، وهنـاك نظريـات متعددة لذلك لكن الاعتقاد السـائد هو أن ما تم لم يكن حدثا واحدا فقط وإنما تم خلال عملية طويلة دامت عدة قرون،عملية غادر فيهـا أجـداد أولئك الغجر (مـن طبقات مختلفة ـ بشـمال غرب الهند

-أساسا- ومن أقاليم أخرى ولأسباب متعددة) موطنهم الأصلي في جماعات صغيرة مستهدفين المضي قدما في الطريق الطويل نحو أوروبا .

وكان من المعتقد في الغالب أن عملية الهجرة هذه قد حفزتها غزوات قبائل الهون البيضاء الإبيثالية من وسط آسيا خلال القرنين الخامس والسادس والكوارث الخطيرة التي سببتها تلك الغزوات للمجتمع الهندي، بما في ذلك سقوط حكم أسرة «جوبتا» وتفكك الإمبراطورية مع انهيار المدن وانحدار الزراعة وانتشار المجاعات والأوبئة، كما كان الغزو العربي للهند خلال القرنين السابع والثامن -خاصة في إقليم السند- فترة أزمات اجتماعية واقتصادية نتج عنها هجرات جماعية كبيرة وقد استثارت غزوات أخرى لاحقة - يطرحها بعض الباحثين- هجرات لاحقة قام بها أسلاف الغجر، منها على سبيل المثال التي قام بها محمود الغزنوي، في القرن الحادي عشر ومحمد غور في القرن الثاني عشر وحتى غزو تيمورلنك (في بداية القرن الخامس عشر) تعد كلها متأخرة حيث إن الغجر -حتى ذلك الحين- كانوا قد ظهروا في السجلات التاريخية البيزنطية وأوروبا، ورغم ذلك يمكن للمرء أن يتقبل فكرة وجود هجرات أخرى متأخرة من الهند، وهو فرض لا يتعارض مع تاريخ المنطقة، وعلى سبيل المثال: فإن المجموعة التي تسمى هيسارسكي بارياه-تصنف حالياً على أنها استقرت في آسيا الوسطى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٢-١ المرحلة الأولى من الهجرة

من الأمور المستحيلة إعداد تقويم زمني دقيق لموجات هذه الهجرة أو مخطط تفصيلي للطرق التي سلكها الغجر خلال رحيلهم من الهند، إنما يعتمد الباحثون بشكل رئيسي على نتائج الدراسات اللغوية، وعلى تطور لغة الغجر، ومؤشرات البيئة الاقتصادية والثقافية الأجنبية في انعكاسها على مفردات لغوية معينة وعلى التغيرات التي تطرأ على اللغة، فهذه - فقط - يمكنها أن تحدد الطرق الرئيسية للهجرة ومراحلها.

وغالبية اللغويين يتفقون على أن لغة الغجر بدأت في القرن السادس أو السابع، في حين أنها حتى القرنين الثامن والتاسع فصاعدا نمت بوصفها لغة مستقلة في ظل تأثير لسان الأغلبية السائد في البلاد (الفارسية - الأرمنية - اليونانية) وقد تجولوا لقرون عديدة عبر الأرض المعروفة اليوم بباكستان وأفغانستان وإيران وحتى جنوب بحر قزوين، وقد انقسم الغجر ولغاتهم إلى فرعين منفصلين (متحدثين باللهجتين المسماتين «بِن وفِن» على الترتيب بناء على تصنيف كلمة «أخت» لديهم). وهذا يحدد مرحلة مهمة في تطور لغتهم ومجتمعهم ككل، وحال وصولهم إلى شمال أرض العراق «ميزوبوتاميا» وإلى الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية مع نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر، انقسم الغجر إلى ثلاث موجات للهجرة، وهي مجموعة «الروم» الناطقة بلهجة «البِن» التي اتخذت الطريق الجنوبي أو استقرت في الشرق الأوسط - ومجموعتان ناطقتان بلهجة «الفن» هما «اللوم» - التي استخدمت الطريق الشمالي، «والروم» التي اتخذت الطريق الغربي واتجهت المجموعة الأولى تجاه

الجنوب الغربي واستقرت بالتدريج في سوريا وفلسطين ومنها شقت مجموعة طريقها إلى مصر وشمال إفريقيا ، ومن المتصور أيضا ـ أنه خلال فترة السيادة العربية لشبه جزيرة أيبريا ـ إسبانيا ـ أن الغجر الراحلين من هذه المجموعة ووصلوا المنطقة من خلال الطريق المسمى «بشمال إفريقيا» قد اختلطوا مع مجموعات الغجر التي وصلت إسبانيا من الشمال ، رغم أن معظم الكتاب يدحضون فكرة هذا الطريق لهجرة الغجر ـ وتوجهت المجموعة الثانية نحو الشمال واستقرت في البلاد الواقعة جنوب القوقاز ـ وتمثلها أساسا أرمينيا وجورجيا الآن ـ ووفقا لبعض الفروض انتقلت أقسام من تلك المجموعات إلى مناطق أبعد عبر الطريق الشمالي (خلال جبال القوقاز والشواطئ الشمالية للبحر الأسود) حتى وصلوا إلى أرض رومانيا الحالية وأرض البلقان ووسط وغرب أوروبا ، لكن أغلب الباحثين يشكّون في هذا الطريق بسبب نقص الدلائل التاريخية واللغوية على ذلك في حين قصدت المجموعة الثالثة -وهى أكبر المجموعات والناطقة بلهجة الفن- والمسماة مجموعة الروم الطريق الغربي نحو آسيا الصغرى وبلاد البلقان ، ومنها تحركت إلى وسط وغرب أوروبا ، وقد استقر أولئك الغجر لقرون عديدة ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية بصورة شبه دائمة والتي شملت ـ في ذلك الوقت ـ مناطق شاسعة من آسيا الصغرى والبلقان .

٢-٢ وصول الغجر إلى إقليم البلقان

يعود الدليل المبكر الموثوق به فيما يتعلق بوجود الغجر في منطقة البلقان إلى عصر الإمبراطورية البيزنطية والأكثر دقة يعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر، وقد قبل معظم خبراء الموضوع حتى وقتنا الحاضر نظرية عالم اللغة المعروف فرانز ميكلوسيتش بأن أول ذكرٍ محدد لوجود الغجر في ظل بيزنطة جاء في كتاب «حياة القديس جورج الأثوسي» الذي مات عام ١٠٦٥، وقد كُتبتْ سيرته حوالي العام ١١٠٠م، حيث تقول: إنه في عام ١٠٥٤ خلال حكم الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس، قد وصل إلى القسطنطينية العديد من قبائل الغجر «الشرقيين» قادمين من منطقة ساماريا، وليس لهم أعمال ثابتة، يتجولون حول المدينة، وقد اشتهروا بمهارات الاستبصار «التنجيم» والأعمال السحرية. وخلال هذا العصر اخترقت الحيوانات المتوحشة حدائق الإمبراطورية ولهذا طلب الإمبراطور من الغجر أن يخلصوه من تلك الحيوانات، فقدم الغجر لحما مسموماً لها فماتت. هنا دعاهم الإمبراطور - متأثرا بفاعلية سحرهم - لدخول قصره وطلب منهم تكرار عملهم السحري بتطبيقه على كلبه. إلا أن القديس جورج الأثوسي - الذي كان حاضر المشهد - قام برسم علامة الصليب على اللحم المسموم وهكذا تم إنقاذ الكلب في حين قام الإمبراطور بطرد الغجر من القصر.

وتميل غالبية الخبراء في هذا المجال إلى قبول التفسير الذي يحيل الاسم تسيجاني «TSigani» - ومشتقاته الصوتية والذي أُطلق على الغجر في أوروبا الشرقية - إلى كلمات من قبل أتسنجاني ATSINGANI

أو أتسنكاني ATSIN KANI وكلاهما قد ذكر في المصادر التاريخية لتلك الفترة، وهناك كذلك نظريات معارضة حول أصل ذلك الاسم تقول إنه مشتق - مثلا - من كلمة أسينكار ASINKAR التي تعني الحدّاد في بعض اللهجات الفارسية، أو من مصطلح استخدم خلال القرن العاشر في بيزنطة من اسم نهر أسطوري في الهند موطن الغجر، أو من الاسم الموسيقي travelling cingari وتعني الراقص أو الموسيقي الجوال في الهند، أو هو مأخوذ مباشرة من الكلمة اليونانية في العصور الوسطى اتسنجانوي ATSINKANOI وتعني الذي لايُلمس، وعموما فالمشكلة الحقيقية تكمن في سؤال آخر، هو ماذا تعني كلمة أتسنجاني أو أتسنكاني؟ وهو سؤال لم يحظ بعد بإجابة محددة، وبسبب الطبيعة الملتبسة والمتشظية للمصادر التاريخية لهذه الفترة، أصبح من المعتاد الظن بأن هذا الاسم يشير إلى المانويين أو إلى الهراطقة المتورطين في أعمال التنجيم وقراءة الكف والسحر والنفث ومن ثم انتقل الاسم - بسبب ممارساتهم الشبيهة - إلى أجداد أولئك الغجر.

ويعتقد باحثو العهد البيزنطي والمعاصرون - منهم بول سبنيك على سبيل المثال - أن مصطلح أتسنجاني كان يستخدم دائما في المصادر البيزنطية للإشارة إلى الغجر، ويحدد ذلك التفسير الجديد لمادة المصدر في زمن اختراق الغجر لحدود الإمبراطورية البيزنطية في وقت أبكر بكثير، مدعما بعدد من أبحاث اللغويين المحدثين وفي العهد البيزنطي نجد مصطلح الغجر «الأتسنجاني» مذكوراً في مدينة أموريون بإقليم فريجيا في تقويم «ثيوفانيس المعترف» الذي كُتب حوالي عام ٨٠٠ للميلاد،

وفيه نجد تقريرا مفصلا - كذلك - عن الصداقة الحميمة بين الإمبراطور البيزنطي نيكوفوروس الأول جينيك وبين المانويين الذين يسمون الآن بالبافيليكيانيين بالإضافة إلى الغجر الذين يعيشون في فريجيا وليكونيا وتحديدا يُشار للمجموعتين من الغجر الأتسنجاني والبافيلكياني كمجموعتين مختلفتين، فالأخيرة ساعدت الإمبراطور بمعرفتهم للسحر حين أخمدوا تمرداً ثار ضده عام ٨٠٣ م لذلك سمح لهم الإمبراطور بالتنقل بحرية عبر إمبراطوريته، وقد اختار بعضهم الاستقرار في منطقة تراس.

اعتقد بعض المؤرخين أن الغجر استقروا في مدينة فيلبوبوليس وما حولها (مدينة بلوفيديف الحالية) على السهول التراسية، ومنذ النصف الأول للقرن العشرين ربط بعض الكتاب البلغاريين - مثل نادين شيتانوف) بين استقرار غجر الأتسنجاني في تراس بين ٨٠٣ م إلى ٩٠٤م بوصول الغجر للمنطقة ولكن ذلك التاريخ البعيد لوصولهم لم يأخذه أغلب الباحثين بعين الاعتبار حتى الوقت الحاضر، والغجر في بلغاريا - بوجه عام - يتقبلون ذلك التاريخ المبكر، ويستعرضونه في إطار محتوى أحداث أخرى في التاريخ البلغاري، ومنها على سبيل المثال أسطورة - رغم رجوعها إلى أزمنة أكثر حداثة - معروفة بين الغجر في بلغاريا تقول: إن الغجر كانوا الحدّادين الذين ائتمنهم الخان البلغاري «كاروم» لطلاء جمجمة الإمبراطور نيكوفوروس الأول جنيك بالفضة، وكان قد قُتل عام ٨١١م في معركة فيربشكي باس، ووفقا للأسطورة الوطنية البلغارية تحولت الجمجمة إلى كأس يتبادل الخان بها الأنخاب مع جنوده.

والدليل الثاني الأقدم فيما يتعلق بالغجر «الأتسنجاني» يأتي من السيرة الذاتية للقديسة أتاناشا من جزيرة إيجينا التي عاشت في القرن التاسع، ففي قصة حياتها وصف عن كيف كانت توزع الطعام ـ خلال فترة من فترات المجاعة ـ على غرباء يدعون الأتسنجاني.

وكانت اتجاهات أباطرة بيزنطة نحو الأتسنجاني في تلك العهود غير ثابتة أو مستقرة، ووفقا لما ذكره ثيوفانيس المعترف، قام الإمبراطور ميشيل الأول رانجيف بتوقيع عقوبة الإعدام على المانويين الهراطقة ـ لفترة قصيرة من الزمن ـ والمعروفين الآن باسم البافليكياني وباسم الأتسنجاري من فيرجيا وليكونيا، ولكن مع ارتقاء الإمبراطور ميشيل الثاني العرش تغير الوضع تماما. وبناءً على معلومات تفصيلية قدمها ثيوفانيس كونتناوتوس، أن الإمبراطور ميشيل الثاني نفسه جاء من مدينة أموريون في فريجيا حيث يوجد العديد من اليهود والغجر الأتسنجاني وقد التزم بهرطقتهم الدينية التي «ورثها عن أسلافه»، وكانت تلك الهرطقة خليطا من المعتقدات لدى الجماعتين، ووفقا لثيوفانيس، كان أفراد الأتسنجاني يُعمَّدون ولكن في بقية العبادات الأخرى اعتبروهم مثل اليهود عدا أنهم كانوا لايختتنون، وقد انشغل ميشيل الصغير «الثاني» بتربية قطعان الماشية في مبدأ الأمر ثم أصبح فيما بعد من المرتزقة إذ تنبأ له أحد أفراد الغجر من الأتسنجاني بأنه سوف يكون إمبراطورا مما دفع الإمبراطور لمعاملتهم معاملة حسنة فيما بعد ووفقا لبعض المصادر الأخرى ـ رغم أنها تعود لزمن متأخر ـ جاءت موجة ثانية لكتلة كبيرة من المهاجرين البافليكيان والأتسنجاني من إقليم أنطاكية واستقروا

مـرة ثانية في منطقة فيليبوبوليس وحدث ذلـك عام ٩٦٩ في ظل حكم الإمبراطور جون الأول تزيمسـكيس، وتم تنظيمها بواسطة بطريرك إقليم أنطاكيـة؛ تيودور موناك. وبنـاءً على ماذكره مايتـي كوبيتار أحد حملة الأقـلام السـلافيين في القرن التاسـع عشـر حول قـدوم القبائـل المرتحلة المسـماة «سيجاني» في خطاب أرسله الأسقف ثيوفلاكت الأوهريدي إلى الإمبراطور أليكسيوس الأول كومينوس (مع نهاية القرن الحادي عشر أو بداية الثاني عشر) وتعد هذه إشارة للغجر.

٢-٣ الغجر في ظل الإمبراطورية البيزنطية

نسـتطيع من خلال المصادر المتأخرة أن نؤكد أنه فيما بين القرنين الثاني عشـر والرابع عشر، كانت كلمة أتسنجاني تشير تحديدا لأجداد الغجر، وهناك مجموعة لها وزنها من الأدلة تدعم هذا الاعتقاد، رغم وجود بعض المواد التي تناقض ذلك، إلا أنها ليست دائما مستندة على سجلات تاريخية صحيحة فعلى سـبيل المثال، يذكر تيودور بال سـامون ـ مشرع الكنيسة البيزنطية في القرن الثاني عشر ـ أن الأتسنجاني تغطي أجسامهم علامات جـروح الثعابين ويقومون بقراءة طوالع النـاس «قراءة البخت»، بالإضافة لوجود خطاب دوري من بطريرك القسـطنطينية أناستازيوس الأول يعود إلـى النصف الأول من القرن الرابع عشـر يحذر بشـأن الوفاء والإخلاص لتعليمات الكنيسـة فيمـا يتعلق بعدم قبولهـا لأي اتصالات أو علاقات مع سـحرة الثعابين والسـحرة عمومًا وبالمنجمين ومدربـي الدببة ومن هم مثـل ذلك، مع تحذير خاص من الأتسـنجاني الذيـن لا يجب ائتمانهم أو

إدخالهـم المنازل لأنهـم يتعبدون بأمور شـيطانية وهذا مـا أكده جوزيف برينيوس ـ الذي كتب في منتصف القرن الرابع عشر ـ ملاحظا أن الناس في ظل الإمبراطورية البيزنطية كانوا يختلطون يوميا بالسحرة والمنجمين والأتسـنجاني والمشعوذين، والمصطلح «أتسنجاني» يستخدم تعبيراً على الإهانة في قصيدتين ساخرتين في العصر البيزنطي من القرن الرابع عشر، وتمدنا بعض الوثائق من أوروبا الغربية ببرهان أقوى حول وجود الغجر في البلقان، يذكر الراهب الفرانسيسكاني سيميون سيميونز عام ١٣٢٢م بعضـا من العبيـد الذين نقلوا من بـلاد الدانوب، وقد رأى أشـباههم في مصر ـ سـودا كالهنود ـ لكن بوجوه موشـومة كما يلاحظ المؤلف نفسه مجموعة يطلق عليهـا «أجداد لحم الخنزير» كان قد التقى بهم في جزيرة كريت، يعيشـون في خيام سوداء وكهوف ولا يستقرون في مكان واحد أكثر من ثلاثـين يوما وتذكر وثيقة كتبها أحد الحجاج من منطقة كولونيا بألمانيـا ـ كان مسـافرا إلى القبر المقدس عام ١٣٤٠ المسـمى ماندوبولي - ورأى قومـاً لاحـظ الكاتب وجودهم أثناء مروره بـأرض موريا (اليونان حاليا) يتكلمون لغة خاصة بهم لا يفهمها غيرهم، وقد وُجد اسم مشابه هو ماندوبولين في وثيقة وصف لبولوبونيزيا كتبها لودولفوس السوتيمي عام ١٣٢٠ م، وفي نسخة لقصة حياة القديس بارباروس من القرن الرابع عشـر تذكر كلمة المصريين **EGYPTIANS** باعتبارهم يعيشون على طوال السـاحل الألباني فـي إقليم ديراكيوم، ومن المعقـول أن تكون كل تلـك الإشـارات أو على الأقل معظمهـا عائدة إلى الغجـر الذين يقيمون بمنطقة البلقان.

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر انتشر استخدام الكلمتين المتميزتين أتسنجاني والمصريين، مع وجود تمّيز واضح بين المجتمعين، فعلى سبيل المثال في سجلات جريجوريوس كيبريوس الثاني بطريرك القسطنطينية، ذُكِرتْ ضرائب خاصة كان يجب جمعها من (المُسمين مصريين وغجر أتسينجاني) بالإضافة إلى توكيل لجمع تلك الضرائب,حيث يقوم جامعو الضرائب «الموكلون» بدفع نسبة من جملة الضرائب المطلوبة مقدما ثم يستردون المبلغ كله من دافعي الضرائب وأغلب المصادر المنتمية لتلك الفترة تستخدم اسما واحدا فقط من الاثنين (المصريين ـ أو الغجر) وكمثال جاء ذكر اسم الأرملة «آنا» التي تعيش بالقرب من دير زيرو بوتامو على جبل أثوس مرتبطا باسم زوجها الجديد «المصري»، كما يذكر اسم نيكولاس المصري الذي يعيش على أرض دير لارفا.

وتعد تلك الوثائق قطعاً فريدة لأنها توضح أنه منذ ذلك التاريخ فصاعدا بدأ تصنيف المصريين ضمن الفلاحين الذين لهم نصف حريتهم «الباريكي» في النظام الإقطاعى التابع لبيزنطة، كما يأتي ذكر «المصريين» كذلك في وثائق نوموكانون البيزنطية التي تَحْرِم كلَ من يطلب من النساء المصريات قراءة طالعه من تناول الخبز المقدس مدة خمس سنوات أو يدعو أولئك النسوة لممارسة السحر داخل منازلهم لشفاء مريض أو ما أشبه وفي عام ١٤١٥م جاء ذكر المصريين الذين أقاموا مدة طويلة في منطقة البيلوبونيز.

وقد أصبح اسم «المصريين» شائعا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ويربط معظم الكتاب بين أصل الكلمة وبين إقليم يعرف باسم

«مصر الصغيرة» ويرى أغلب الباحثين أن «مصر الصغيرة» جزء من أرض البيلوبونير رغم وجود نظريات أخرى مثل أن مصر الصغيرة «هي أزمير الحديثة في أسيا الصغرى أو المنطقة المحيطة بإقليم أنطاكية (وهي الأناضول أنتاليا في تركيا الحديثة) ومن المحتمل أن الأساطير التي تدعي أن الغجر كانوا ملوكا «لمصر الصغيرة» قد نشأت في تلك الفترة وهي الأساطيرنفسها التي تقول إن الغجر تكاثروا عند وصولهم لغرب أوروبا في القرن الخامس عشر.

وغالباً ما نجد في مصادر البيزنطيين في القرن الرابع عشر أسماء أخرى ومنها علي سبيل المثال القصيدة الساخرة «فلسفة السكران» الثمل؟! وهي تذكر أولئك المدعين كاتسيفيلوس ـ أي صناع المَناخل ـ وهي كلمة مازالت تستخدم في اليونان الحديثة للإشارة إلى الغجر. ونجد المصطلح نفسه في فرمان عام ١٣٥٠م الصادر عن الإمبراطور جون باليولوجوس الخامس الذي يؤكد ملكية الأرض لأحد النبلاء ومع هذه الملكية ملكية الأقنان على الأرض نفسها وكان بعضهم يسمي إيجيبتو كاتسيفيلوس «الغجر المصريين» بالمصريين صانعو المناخل ؟

خلال القرن الرابع عشر في مقاطعة البندقية بإقليم البلوبونير وجزر الأيونية، فلقد أنشئت بعض ممارسات إدارية معينة ضد الغجر مثل منح حق امتيازات ضرائبية أو حق الحكم الذاتي (وهي ممارسات انتشرت نوعا ما مع دخول الغجر لأوروبا الغربية) فعلى سبيل المثال أعادت السلطات في مدينة نوبليا ـ بالبندقية في شرق إقليم البيلوبونيز تأكيد الامتيازات التي اكتسبها أحفاد يوحنا سنجانوس الذي كان قائدا للغجر في عام ١٤٤٤.

كان الحجاج المتوجهون لزيارة قبر المسيح ـ عليه السلام ـ يذكرون بتكرار اسم غجر مدينة «مودون» وهي على الساحل الغربي لإقليم البيلوبونيز، ويأتي أقدم دليل في هذا الشأن عام ١٣٨٤ م من ليوناردو دي نيكولو فريسكوبالدي الذي كتب عن «روميتي» الذين يعيشون خارج أسوار المدينة، وبعد قرن أي عام ١٤٨٣م ووفقاً لكتابات برناردفون بريدنيباخ كان هناك حوالي ٣٠٠ أسرة فقيرة تعيش في أكواخ بالقرب من المدينة وكانوا سود البشرة كالإثيوبيين، في حين يضيف بعض الرحالة إلى ذلك بأن أولئك الناس كانوا حدّادين، كما أن هناك وثائق من جزيرة كورفو تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر وأرّخت أول الوثائق بتاريخ ١٣٧٥ م وأعيد تأكيدها عام ١٣٨٦ م ولعدة مرات خلال القرون التالية تصنف جماعة الغجر بأنهم غجر الأرض تصف وجود الغجر وتأسيسا على منهج استثنائي تم إعفاء الغجر الذين يعملون حدادين وصُناع القدور والمزارعين والذين في ظل شروط الوثيقة، من دفع الضرائب والالتزامات الأخرى ـ وهم مسؤولون فقط أمام زعيمهم (وهو بلقب بارون وكان أولهم اللو سياسي دي سيترو) والذي بدوره كان قد جمع منهم الكثير من الأموال وما إلى ذلك.

بفضل هذين المصطلحين «أتسنجاني» و«مصريين» المستخدمين في سجلات هذه الفترة، يمكن للمرء محاولة التمييز بين موجات هجرة الغجر إلى كلّ من البلقان وأوروبا، إذ يتضح أن هناك موجتين رئيستين للهجرة كفرضية مجردة، في الأولى - التي ربما تكون الأقدم- انتقل الأتسنجاني من القسطنطينية باتجاه أراضي بلغاريا، وصربيا ومولدافيا وفالاشيا، وفي

الثانيــة ـ المدعوة بالمصريين ــ تحركت الموجة عبر مصــر الصغيرة ـ أينما تكــون تلك الأرض والتي يبدو أنها كانــت بإقليم البيلوبونيز ـ ووصلت فيمــا بعد إلى أراضي البلقان، وأحفاد جماعة تلك الموجة هم من شــكلوا المجتمعــات التي اشــتق اســمها من اســم المصريين ومنهــا (أوجوبتي في بلغاريا، وإيجيبتس في مقدونيا، وإيفجي في ألبانيا وجيفتي في اليونان) وقــد فقدت تلــك المجتمعات لغتها الأصلية وأصبحــت منفصلة تماماً عن هويــة الغجر فــي بلاد البلقان، وســوف يتولى الزمن أو اكتشــاف مصادر تاريخية جديدة أو إعادة فحص وتدقيق المصادر الشــائعة أمر إيضاح مدى صدق التمييز بين موجات الهجرة تلك إلى منطقة البلقان.

٢-٤ الغجر في ولايات البلقان

هنــاك دليل علــى دخول الغجر أراضي البلقــان وولاياتها خلال القرنين الرابع عشــر والخامس عشــر لكن بعضا مــن هذا الدليل يأتــي متناقضا، فوفقــا لتقــويم نيكوفــوروس جريجــورا وصلــت مجموعــة مــن لاعبــي الأكروبــات إلى القســطنطينية من مصــر مع بداية القرن الرابع عشــر (خلال حكم الإمبراطور اندرونيكوس الثاني) بعد رحلة طويلة من الشرق الأدنــى وقد زار أعضاء تلك المجموعــة بلاط العديد من الحكام المحليين في تراس ومقدونيا وأراضــي صربيا وقد قدموا عروضهــم لملك صربيا فيما بعــد (ســتيفان ديشــانكي) ثم وصلــوا حتى إســبانيا بالتدريــج ويذكر الباحث في الشــؤون البيزنطية جورج سوليس أن مجموعة اللاعبين تلك كانت من الغجر. وفي عام ١٣٤٨ م أصدر ملك صربيا ســتيفان دوشــان

هيثاما تحديدا لعدد الضرائب الواجب دفعها بواسطة «السنجاري» الذين كانوا يعملون صناعا لحداوي الخيول وسروجها ثم وهبهم مع ملكياتهم وقراهم إلى دير الأسقفين ميشيل وجابريل بمدينة بريزن، ويعتقد بعض المؤلفين أن جماعة «السنجاري» الذين قدمهم الملك الصربي ميلوتين لدير هيليان داريو الواقع على جبل أثوس عام ١٢٩٠ كانوا أيضاً من الغجر لكن أغلب المؤرخين الصرب ـ والذين يتبعون خطى فرانز ميكلوسيتش ـ لايقبلون هذا الدليل على وجود الغجر في الأراضي الصربية مفسرين هذه المفردات بصورة مختلفة على أنهم مجرد «صانعي أحذية» وعلى أي حال، لاشك أن الغجر كانوا قد دخلوا مناطق البلقان خلال هذه الفترة، وهو ما تم تأكيده بواسطة أدلة معاصرة، إذ يذكر سجل مدينة راجوزا لعام ١٣٦٢ م اسم اثنين من الإخوة مصريين(١) هما فلاهو وفيتان اللذان كانا يصنعان شرائط جلدية مفضضة والتي تم إيداع بعضها كرهن لدى صائغ محلي مقابل قرض، وقد جاء ذكر الغجر «تسيجاني» في مدينة زغرب لأول مرة عام ١٣٧٣م ثم مرة ثانية عام ١٣٧٨، ثم في ليوبليانا عام ١٣٨٧ م، في حين تم تسجيل عشرات من الغجر في زغرب بين أعوام ١٣٨٧ و١٣٩٧ كجزارين وتجار بشكل أساسي وغالبا ما كانوا يَمْثلون أمام المحاكم لعدم سداد قروضهم، والغجر يُذكرون ـ عامة ـ في الوثائق منذ القرن الخامس عشر (الموسيقيون وصغار التجار بصفة أساسية) وخاصة وثيقة عام ١٣٤٣م التي تذكر قوم الراديكو تسيجاني في البوسنة باعتبارهم مدينين لتجار من راجوزا ووفقا لبعض الأساطير التي سجلت في عصور لاحقة فإن ابن حاكم ألبانيا ليك دوكاجين كان قد

قُتل بواسطة بعض الغجر في منطقة مونتنجرو في القرن الرابع عشر، بينما رفض ليك الانتقام من كل الغجر الذين يعيشون فوق أرضه لأن «المرء لا يشتري رغيفين من الخبز، مقابل قطعة نقدية ضئيلة، ومقابل دماء أُريقتْ بالفعل ليس لدنيا حاجة لإراقة المزيد منها، ملتزما بالقاعدة العرفية للثأر، هي الدم مقابل الدم، ورجل مقابل رجل بدلا من معاقبة جموع الغجر»، ومن المحال أن يتأكد المرء من تاريخ أول اتصال تم بين شعب البلغار وقبائل الغجر، أو زمن الدخول المبكر الذي قام به الغجر في الأراضي التي كان يحتلها البلغار، أو حتى متى بدؤوا الاستقرار في الأراضي البلغارية بصورة دائمة، إذ أدى الكلام المتكرر بنصوص ميثاق ريلا (١٣٨٧) الذي أصدره القيصر إيفان شيشمان إلى الكثير من سوء الفهم، حيث يشير النص إلى منطقة تعرف باسم «اجوبوفي كليتي» وهي التي غالبا ما كان الباحثون البلغار والدوليون يربطونها بوجود الغجر (مفسرين هذا المصطلح بكلمتي «إيجيوبتي كليتي» والتي تعني الغجر الفقراء) رغم أن النص لايفيد هذا، بل كل ما يشير إليه هو تلك المحال الموسمية للرعاة في الجبال ورغم الافتقار إلى دليل، إلا أنه يمكن التأكيد ن استقرار الكتلة الكبرى من الغجر في الأراضي البلغارية قد حدث فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وهذا الغرض يسمح بوجود اتصال واستقرار مبكرا عن ذلك، ومثال لذلك تلك الهجرة المذكورة سابقاً عن «الأتسنجاني» إلى منطقة «ثراس» في بداية القرن التاسع وهذه الثقة نابعة من تلك الوثائق المتعددة التي تسجل وجود الغجر في الدولة البيزنطية بالإضافة إلى تقدمهم باتجاه صربيا ومولدافيا وفالاشيا، آخذين في الاعتبار

الموقع الجغرافي لبلغاريا، ويبدو الغرض القائل باستقرار ـ أو على الأقل عبور ـ الغجر في الأراضي البلغارية خلال تلك الفترة منطقيا، بالإضافة إلى وجود دليل من القرنين الخامس عشر والسادس عشر يفيد بأن الغجر المسيحيين فاقوا الغجر المسلمين عددا في أراضي بلغاريا دالة على أن غالبية الغجر قد استقرت هناك فيما قبل الغزو العثماني واستيعاب بلغاريا وسط الإمبراطورية العثمانية ومن نفس هذه الفترة الزمنية، لدينا الدليل الأقدم على وجود الغجر في المناطق المحلية لمولدافيا وفالاشيا شمالي نهر الدانوب، رغم أن وضعهم هناك كان مختلفا جدا عن بقية ولايات البلقان، ووفقا للأسطورة ـ المنتشرة أيضا في الأدبيات الأكاديمية ـ نعلم أن أمير مولدافيا أليكساندر الأول هو الذي قام بدعوة الغجر، وأصدر فرمانا خاصا يضمن لهم أرضا وهواء ليعيشوا عليها وكما وفر لهم حديدا ونارا، للعمل بهما، وقد ذكر ذلك الفرمان المؤرخ ميشيل كوجالينسينو دون أن يشترك معه أي أحد آخر في رؤية النص الأصلي للفرمان، وتشك غالبية المؤرخين في وجود ذلك القرار ويشاركهم ذلك الرأي المؤرخون الرومانيون.

وما هو مؤكد ـ على كل ـ أن دخول الجمهرة الكبرى من الغجر إلى أرض مولدافيا وفالاشيا ارتبط بتقديمهم إلى الأديرة كعبيد، إذ انتشر في إقليم البلقان في ذلك الوقت عادة تقديم الأرض بما عليها من بشر «من فلاحين وحرفيين وعبيد» إلى الأديرة بواسطة الحكام والأثرياء، فعلى سبيل المثال، قام نبلاء صربيا عام ١٣٤٠ م بإهداء عدد من العائلات الغجرية إلى دير العذراء المقدسة في تسمانا في إقليمْ كارباتيا، وفي عام ١٣٦٠ م قدم الزعيم فلادسيلاف مجموعة من الأسر الغجرية لدير القديس أنتوني

بمدينة فورتيشـــي، وفي عام ١٣٨٥ م قام ابن أخته دان الأول حاكم وســـيد كل أراضي انجروا ـ فالاشيا بتقديم أربعين أسرة غجرية لدير العذراء المقدسة في تســمانا، وفي عام ١٣٨٧ م أكد وريثه جون مرســيا هــذه الهبة ومنح الديــر فــي جوزيا ٣٠٠ أســرة من الغجــر، ووفقا للخطــاب الإمبراطوري «لكريســبول» عــام ١٤٢٨ م قدم أمير مولدافيا أليكســاندر الطيب هدية مماثلة للدير في بيستريا وهكذا... وبهذا الأسلوب وبالتدريج تطور نظام شــرعي كبير في هذيــن الإقليمين المحليين، شــملَ الغجر «الأتســينجاني» بحالة معقدة من العبودية سنطرحها للمناقشة آجلا.

٢-٥ الغجر عشية الغزو العثماني

مــن الواضح الجلي أن هنــاك عدداً من الثغرات في سلســلة تاريخ وجود الغجــر فــي بلاد البلقــان، بالإضافــة لعدد من الأســئلة التــي لا توجد لها إجابات حاسمة، والحلول المفترضة ـ هنا ـ هي مجرد افتراضات حتى الآن ــــ وعلى أي حــال فمن الظاهر تماما أنه عندما بدأ الغــزو العثماني للبلقان خــلال القرن الرابع عشــر، كان هناك غجر موجودون بالفعل عاشــوا في الإقليم مدة غير قليلة، وقد حدث التوافق في معيشــة الغجر وســط شعب البلقان بطرق مختلفة كجماعات من الرُحّل والممثلين المتنقلين أو كحرفيين بالمدن أو تجار، وفي إطار هذا المعنى يمكن اعتبار مفهوم العبودية كشكل من أشــكال التوافق داخل المجتمع، وعلى أي حال فقد توافق الغجر مع الحياة الاجتماعية والثقافية للإقليم حتى ولو كان ذلك ـ أحيانا ـ بأســاليب غير معتادة.

وعلى المرء أن يؤكد عدم وجود مشاعر مباشرة بالعداء تجاه الغجر في البلقان ـ إذا ما نحّينا جانباً ذلك الشكل المحدد من العبودية الذي وُجد في مولدافيا وفالاشيا حيث كان ذلك وضعا فريدا في تاريخ الغجر ـ مثل تلك المشاعر التي شاعت بين أفراد المجتمعات المحلية في غرب أوروبا تجاههم في العصور التالية، فالمصادر ـ رغم تأثرها ـ تسفر عن اتجاهات سلبية مشوبة بالاحتقار تجاه الغجر لكن ذلك لم يتحول إلى ملاحقات نمطية تقوم بها السلطات الدينية أو المدنية لهم، ولم يتم هذا الاضطهاد دون وجود حالات مماثلة في أماكن أخرى لكن يمكن تفسيرها وفقا لطبيعة الإمبراطورية البيزنطية وطبيعة ولايات البلقان التي كانت مرتبطة ثقافيا وتاريخيا بتلك التوجهات، فالمنطقة كانت خليطا من شعوب مختلفة حيث تعد مطاردة الآخر استثناءً لا قاعدة.

الفصل الثالث

شروق مجد الإمبراطورية العثمانية

كانت الإمبراطورية العثمانية ضمن إمبراطوريات العالم العظمى، إذ كان لهـا تأثير كبير على مجرى التاريخ العالمي وعلى مصير الشعوب الذين كانوا جزءا من تلك الإمبراطورية.

٣-١ الغزو العثماني للبلقان

إن تأسيس الإمبراطورية العثمانيـة كان نتاج الاستقرار الدائم للقبائل التركمانية المتعددة في آسيا الصغرى من القرن الحادي عشر فصاعدا مع القادمين من آسيا الوسطى، وقد حدثت آخر أكبر هجرة لهم خلال القرن الثالث عشر تحت ضغط الغزوات المغولية، ومع نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر نجحت قبيلة تركمانية بقيادة الأمير أرطغرل وابنه عثمان (١٢٩٩-١٣٢٦) في إخضاع القبائل المجاورة الصغرى ووضعت أسس دولة عثمانية تركية جديدة في أسيا الصغرى وقد سمّيت بذلك نسبة لاسم الأمير عثمان.

وخلال حكم القائد الثاني أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩ م) انتهز العثمانيون وقوع الحروب الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية وبدؤوا في غزو آسيا الصغرى كلها تقريبا ونفذوا لبلاد البلقان وفي عام ١٣٥٢م استولوا على قلعة تسيمبي في شبه جزيرة جاليبولي ثم على قلعة كاليبولي بعد عامين من ذلك، وفي هذا الوقت تصدعت أركان الإمبراطورية البيزنطية وولايات البلقان بسبب الصراعات المتتالية التي أدت إلى نشأة عدد من الولايات الصغيرة المستقلة وشبه المستقلة والملكيات الإقطاعية واستفادت الجيوش

العثمانية من هذه الظروف واخترقت منطقة البلقان، وخلال حكم السلطان مراد (١٣٦٢ـ ١٣٨٩م) سادت الجيوش تدريجياً على إقليم «ثراس» بما في ذلك مدن أدريانوبل، وديموتيكا وفلبوبوليس، وقد أعاد الأتراك تسمية مدينة ادريانوبل إلى «ادراين» وتحولت إلى عاصمة للدولة العثمانية، وانتشر الغزو العثماني إلى مدى أبعد عقب معركة تشيرنومن (تشيرمن) التي تم فيها تدمير جبيشي «فوكاشين» و«احلبش»ـ وهما حاكمان مستقلان لأجزاء من منطقة مقدونيا. وفي عام ١٣٨٢م وقعت مدينة صوفيا بأيدي العثمانيين وبعدها زادت إمكانيات امتداد الغزو العثماني.

٣-٢ الحروب العثمانية وبناء الإمبراطورية

تحدد مصير شعب البلقان بوقوع معركة كوسوفو، حيث هُزِمتْ الجيوش المتحدة لعدد من حكام منطقة البلقان تحت قيادة «لازار» ملك صربيا، وواصل السلطان الجديد بايزيد الأول «الصاعقة» غزو كل من صربيا وبلغاريا من محليات إقليم تورنوفو (عام ١٣٩٣م) ومنطقة «فيدين» (١٣٩٦) وقد عبرت جيوشه نهر الدانوب وأجبرت حاكم فالا تشيا جون مرسيا على أن يصبح تابعا له.

سلاطين بني عثمان		
1ـ عثمان الأول	1299	1324
2ـ أورخان غازي	1324	1362
3ـ مراد الأول « هاد أفنزي غيار»	1362	1389
4ـ بايزيد الأول « الصاعقة»	1389	1402

5ـ بلا حاكم محدد	1402	1413
6ـ محمد الأول	1413	1421
7ـ مراد خوجة الثاني	1421	1451
8ـ محمد «لثاني» الفاتح	1451	1481
9ـ بايزيد فيلي «الثاني»	1481	1512
10ـ سليم الأول «يافوظ»	1512	1520
11ـ سليمان الأول «المشرع» العظيم	1520	1566
12ـ سليم الثاني «سارحوش»	1566	1574
13ـ مراد الثالث	1574	1595
14ـ محمد الثالث «العدلي»	1595	1603
15ـ أحمد الأول «باهتي»	1603	1617
16ـ مصطفى الأول «ديلي»	1617	1618
	1622	1623
17ـ عثمان الثاني «جنش»	1618	1622
18ـ مراد الرابع «الغازي»	1623	1640
19ـ إبراهيم الأول «ديلي»	1640	1648
20ـ محمد الرابع «أفجي»	1648	1687
21ـ سليمان الثاني	1687	1691
22ـ أحمد الثاني	1691	1695
23ـ مصطفى الثاني الغزي	1695	1703
24ـ أحمد الثالث	1703	1730
25ـ محمد الأول «كامبر»	1730	1754
26ـ عثمان الثالث	1754	1757
27ـ مصطفى الثالث	1757	1774
28ـ عبد الحميد الأول	1774	1789

29ـ سليم الثالث « جيهاندر »	1789	1807
30 – مصطفى الرابع	1807	1808
30ـ محمود الثاني « عدلي »	1808	1839
31ـ عبد المجيد الأول « الغازي »	1839	1861
32ـ عبد العزيز	1861	1876
33ـ مراد الخامس	1876	....
34ـ عبد الحميد الثاني	1876	1909
34ـ محمد الخامس « رشاد »	1909	1918
35ـ محمد السادس « فهد الدين »	1918	1922
36ـ عبد المجيد الثاني « الخليفة »	1922	1924

وبالتدريج غزت الإمبراطورية العثمانية جميع أراضي البلقان مع بقاء فالاشيا ومولدافيا في حالاتهما الخاصة كمحليات تابعة، وسقطت مدينة ثيسالونيكي عام ١٤٣٠م، وبعد فترة طويلة من الحصار نجح السلطان محمد الفاتح «الغازي» في الاستيلاء على مدينة القسطنطينية التي أعيد تسميتها «إستانبول» وأصبحت العاصمة الجديدة للإمبراطورية بديلا عن «إيدراين» وتم احتواء الأرض المفتوحة داخل الإمبراطورية العثمانية التي طورت نظامها الإداري والاقتصادي المعقد المبني على أساس عسكري والذي طُبِقَ بدوره على الرعايا بمن فيهم الغجر. وقامت الإمبراطورية بمد غزواتها نحو الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالإضافة إلى وسط أوروبا، وقد وصلت إلى قمة عظمتها في عهد السلطان سليمان الأول «العظيم» ١٥٢٠-١٥٢٦م ثم سقطت المجر بعد معركة موهاكس عام ١٥٢٦م، وتوقف توسعها فقط بسبب حصارها الفاشل لمدينة فيينا عام ١٥٣٩

وهزيمة الأسطول العثماني في موقعة ليبانتو عام ١٥٧١م، وهي الهزيمة التي حدثت بفعل التحالف بين إسبانيا والبندقية متحدتين تحت رعاية بابا روما.

وقد تبع ذلك سلسلة من الحروب الأقل نجاحا والتي نتج عنها مجموعة من الهزائم العسكرية أوقعتها بالإمبراطورية كل من النمسا، وبلاد فارس، وروسيا والبندقية أدت إلى توقيع اتفاقية كارلو فيتز التي كانت مؤشر بداية انهيار هذه الإمبراطورية.

٣-٣ المصادر التاريخية حول وجود الغجر في الإمبراطورية العثمانية

هناك دليل تاريخي له اعتباره على وجود الغجر في البلقان خلال فترة السيادة العثمانية، رغم أن ذلك الدليل يعد غالبا مهلهلاً وغير حاسم، إلا أنه يمدنا بملامح محددة لطبيعة وامتداد ذلك الوجود حيث وصل عدد كبير من الغجر إلى منطقة البلقان أثناء الغزوات العثمانية، ووصل عدد كبير من المهاجرين الغجر لأراضي البلقان في وقت الغزو العثماني، وكان وصولهم إما مباشراً باشتراكهم في تلك الغزوات (على الأغلب كجنود أو كحدادين يساعدون الجيش). أو باعتبارهم جزءا من البشر الذين صاحبوا الغزو ومضى بعض من أولئك الغجر قدما مع الجيش داخل أوروبا في حين بقي عدد له قيمته في أراضي البلقان حيث استقروا هناك أو استمروا في انتهاج حياتهم كقبائل مرتحلة، ومع وجود نسبة من السكان من الغجر في الأراضي المفتوحة حديثا، فقد تبدت أرقامهم في عدة وثائق

رسمية تعود إلى تلك الفترة، وتجدها أساسا في الأرشيفات الثرية الخاصة بالحكومة العثمانية والإدارة المحلية (التي دُرِسْت بتوسع حتى الآن) تحت مسميات القبط والصينيين (أوتشين ماتشين وهي الصين بالتركية) وتشمل تلك الأرشيفات وثائق إدارية تحوي تفصيلات لسجلات الضرائب وأوامر المحاكم المتعلقة بالأمور المدنية والاقتصادية والدينية والعائلية، وكان النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي العثماني مختلفا كثيرا عن النظام الغربي الأوروبي، فعندما كانت الإمبراطورية العثمانية في أوجها، كان بناؤها الطبقي المعقد المؤسس على الإدارة العسكرية والاقتصادية والدينية واقعا تحت سيطرة القبضة المُحْكمة للسلطان وقد تحكم هذا النظام المعقد في سُبُل الحياة اليومية لمجموع السكان، حيث تم تصنيفهم -أيضا- بصورة مرتبة إلى فئات متعددة، كان أهم فئتين منهم المسلمين «المؤمنين» والرعايا المسيحيين، ولكل فئة أحوالها المختلفة وعلى كل منها التزاماتها المغايرة تجاه الدولة المركزية ويظل هناك سؤال منهجي بلا حل ويهمله معظم المؤرخين المتخصصين -رغم إمكان إثارته لمشكلات خطيرة- وهو إلى أي مدى تَمُدنا الوثائق الرسمية الموجودة بصورة حقيقية عن الماضي؟ وهذا التساؤل يُعد مسببا للإشكالات خاصة في حالة منطقة البلقان بغض النظر عن الفترة الزمنية والنظام السياسي الخاضع للدراسة إلا أنه بعد أن نأخذ في اعتبارنا أوجه القصور المحتملة للمصادر التاريخية الموجودة، نجد أن تلك المواد الثرية المتاحة تمدنا بنقطة بدءٍ لنظرة جديدة في تاريخ الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية.

٣-٤ الغجر في سجلات الضرائب

تم تحديد طبيعة سجلات الضرائب بواسطة النظام الاقتصادي العسكري المعقد لملكية الأرض داخل الإمبراطورية وبالتحديد كانت الأرض ملكا خاصا بالإمبراطورية وهناك جزء منها (والمسمى الميولك) يخص السلطان نفسه أو يخص السلطات الدينية (الفاكوف - الأوقاف) وقد قسم السلطان الأرض المستعمرة إلى أجزاء أسموها (التيمار والزيامت والهاس) ووزعها على طبقة القيادة العسكرية (السباهي) وخصص لهم نصيبا من الضرائب المتنوعة مقابل قيامهم بواجبات عسكرية محددة، مثل تسليح وتغذية عدد من الناس وتنفيذ بعض الأدوار معهم خلال الحملات الحربية.

ويعود أول ذكر للغجر في وثائق الضرائب للإمبراطورية العثمانية إلعام ١٤٣٠م وهو موجود في سجل «التيمارز» المنتسبين لسنجقية إقليم نيكوبول، ومسجل به ٤٣١ أسرة غجرية ويمثلون ٣,٥٪ من جملة المسجلين بوجه عام، كما أن مجموعة القوانين واللوائح المتعلقة بالسكان في مقاطعة روميليا عام ١٤٧٥م تُعد مصدرا أكثر أهميةً وشمولاً في ذكر أعداد الغجر وأوضاعهم الاجتماعية أيضا في عهد محمد الفاتح الثاني، وقد احتوت رومليا تقريبا كل شبه جزيرة البلقان باستثناء الأقاليم التي لها وضع خاص مثل محليات مولدافيا وفالاشيا والبوسنة ويتضح من تلك المجموعة أن كل الغجر في ذلك العصر ـ بغض النظر عن كونهم مسلمين أو مسيحيين ـ قد سددوا ضريبة الرأس، وإلا فإنها كانت تُجمع من غير المسلمين فقط، وقيمتها حوالي ٤٢ أكشه سنويا طوال السنوات الثلاث التي غطّاها ذلك السجل.

وعلى أي حال تفيدنا وثيقة أخرى داخل تلك المجموعة أن الغجر المسلمين قد مُنعوا من الاختلاط بالغجر المسيحيين، وكان عليهم أن يدفعوا ضريبة أعلى لو وقعوا في ذلك إذ على المسلم أن يعيش فقط بين المسلمين وإذا ما استمر في العيش بين غير المسلمين فعليه أن يدفع ضريبة الرأس بنفس قيمة الضريبة المفروضة عليهم.

والقراران يحملان نوعا من التعارض، فالممارسات المعتادة على أي حال، أن يقوم المسيحيون بسداد ضريبة أكبر من المسلمين، كما سيتضح من سجلات الضريبة التي سنذكرها فيما بعد في هذا الفصل.

كان النظام الذي يجمعون بواسطته الضرائب من الغجر الرُّحّل محددا حيث لابد للقاضي أن يمنح السلطة بالوكالة لشخص يمكنه الرحيل مع الغجر ويكون مسؤولاً عن دفع الضرائب، وفي الواقع فإن سلطة ذلك الوكيل كان من المحتمل أن تمنح إلى نائب يأتي من مجتمع الغجر نفسه، وكانت فئات معينة من الغجر تُستبعد من ضريبة الرأس تلك ومن بينهم أولئك الذين يقدمون خدمات ما للجيش وعلى سبيل المثال الغجر الذين يعيشون في الحصون ويقومون بأعمال الصيانة فيها، كأعمال الحدادة وإصلاح الأنواع المختلفة من الأسلحة، والعمل بالفرق الموسيقية العسكرية وأعمال القوات المعاونة، وكان تطبيق إعفاءات ضريبية معينة على الغجر في خدمة الإمبراطورية مستمرا لفترات متأخرة خاصة في بعض الأقاليم ذات الحالات المحددة مثل البوسنة.

وهناك سجل خاص آخر تم حفظه متعلق بالغجر المسيحيين الذين كان عليهم سداد ضريبة الرأس هذه ومع كل الاحتمالات، استقر أولئك

الغجر في منطقة البلقان قبل الغزو العثماني، وهذا السجل يغطي الفترة من ١٤٨٧م إلى ١٤٨٩م ويسجل الغجر المسيحيين الذين عاشوا في مقاطعات استانبول وفيزا وجاليبولي وايدرامن وشيرمن ويانبولي وفيليي وصوفيا ونيكوبول وفيرمن وكيوستديل وكروشيفاتس وسميديرفو وياني بازار والبوسنة، ومثلوا ٣٢٣٧ من الأسر إجمالا بالإضافة إلى ٢١١ أرملة أخريات، ووفقا للقواعد العثمانية يُعد الرجال فقط الذين كانوا رؤوسا للعائلات، أو الأرامل عندما يكون لهم وضع الرجال نفسه هم المصنفون كدافعي ضرائب ويدفعون لصالح عائلاتهم كلها، ولذا سجلت وثائق الضرائب هاتين الفئتين السابقتين فقط. وببحث السجل وُجد تنظيمٌ خاص يعود إلى عام ١٤٩١ م - مرفق معه- كان يحدد مبلغ الضريبة المستحقة وهو ٢٥ أكشه سنويا، ويحدد ضريبة أخرى هي ضريبة الأرض المقررة على المسيحيين وتسمى إسبنشة ورسم يُفرض على الليلة الأولى للزواج وتسمى (كروفينا).

٣-٥ ماذا نتعلم من سجلات الضرائب؟

تعطينا البيانات المستخلصة من سجلات الضرائب فكرة واضحة للنمو الديموجرافي للكثافة البشرية للغجر في مواقع متعددة، منها على سبيل المثال سجل الضرائب في فيلبي فيما بين ١٤٨٩ ـ ١٤٩٠ الذي سجل ٣٣ عائلة و٥ أرامل رؤوساً لعائلات، وفي عام ١٥١٦ وصل عدد العائلات إلى ١٧٥، وبعد عشر سنوات كان هناك ٢٨٣ عائلة بالفعل، كان منها ٩٠ عائلة مسلمة و١٩٣ مسيحية، وفي عام ١٥١٦م في مدينة بليفني تم

تسجيل ١١ عائلة غجرية وفي عام ١٥٥٠م وصلت إلى ٣٦ عائلة بينما وصلت عام ١٥٧٩م إلى ٤٤ عائلة، كما تمدنا البيانات بفكرة عن النسبة المئوية للغجر مقارنة ببقية السكان ففيما بين أعوام ١٥٢٦ ـ ١٥٢٨ م على سبيل المثال في مقاطعة أسكي زارا كان هناك ٢٤٥٠ عائلة كانت ٦١ عائلة منها من الغجر، أما في عام ١٥٩٥ م في مدينة يانبولي فكان هناك ٥٢٩ عائلة كان منها سبع فقط من الغجر وسجل الضريبة التالي الذي يستحق عناية خاصة يعود إلى عامي ١٥٢٢م - ١٥٢٣ م وعنوانه «الوثيقة الشاملة للدخل والضريبة على الغجر بمقاطعة رومليا....» الذين وجدوا على أرض السلطان «المتوفى» بايزيد خان.... وفي فاكوف ومايولكس التابعة لكبار الوزراء والنبلاء في سنجقية الغجر ومقاطعات زياميت وتيمارز... ويضم ذلك السجل الضخم ٣٤٧ صفحة وكان يتعامل بشكل محدد مع مسائل الغجر، وسجل عدد العائلات الغجرية مصنفة وفقا للجماعات الضريبية المقيمة في تسع مقاطعات قانونية بالإضافة إلى البنية الدينية للغجر، والمقاطعات التي يعيشون فوق أرضها، ووظائفهم وأحوالهم الاجتماعية، كما سجل ذلك المستند ١٠٢٩٤ مسيحياً و٤٢٠٣ مسلم من رؤوس العائلات الغجر (وتشمل في مجملها ٤٧١ أرملة معيلة، وبخلاف ما سبق ذكره كان هناك ٢٦٩٤، عائلة مسلمة يعيشون في « سنجقية الغجر » ووفقاً لحسابات المؤرخ المقدوني أليكساندر ستوجانوفسكي -الذي بنى تقديراته على أن كل عائلة بها ٥ أفراد في المتوسط- وبعد السماح بإدخال بعض التعديلات تكون جملة الغجر ٦٦٠٠٠ نسمة منهم حوالي ٤٧٠٠٠ من المسيحيين، ووفقا لتقديرات

أخرى اعتمدت على ذلك السجل وجدوا أن هناك ١٧١٩١ عائلة غجرية في الأرض التي شكلت الآن بلاد البلقان والتي توزعت كالآتي ؛ في تركيا ٣١٨٥ واليونان ٢٥١٢ وألبانيا ٣٧٤ ويوغسلافيا «السابقة» ٣٨٢، وبلغاريا ٥٧٠١ ، في حين كان الرقم المحلي الفعلي ١٠٣٧ عائلة رقما غير مؤكد ، وذلك يبين بوضوح أن الغجر وُجدوا بأعداد أكثر في بلغاريا من وجودهم في أي مكان آخر من منطقة البلقان .

٣-٦ الغجر ـ مسيحيون ومسلمون

يمكن استخلاص دليل إضافي من سجل ضريبة روميليا لعامي ١٥٢٢ ـــ ١٥٢٣م فرغم تعدد أنواع الضرائب التي تدفع لم يكن هناك اختلاف ذو قيمة بين ما كان يدفعه الغجر المسيحيون وما يدفعه الغجر المسلمون ، فعلى سبيل المثال كان على رؤوس العائلات المسيحية أن تسدد ٢٥ أكشه ضريبة لأرضهم في حين كان على المسلمين دفع ٢٢ أكشه وهو النظير المقابل لضريبة الأرض للمسلمين ويدعى رسم الشفت ، وكانت بقية الالتزامات التمويلية إما هي نفسها أو متشابهة تماما بما في ذلك الرسوم المختلفة مثل رسم العرش «البادوهافا» أو الغرامات الموقعة لسبب الجرائم والانتهاكات وتسمى «جيوريوم الجناية» .

ويمدنا تحليل مبدئي للأسماء الأولى لأفراد الغجر بفرصة لدراسة مدى الانتساب الديني لديهم ، فالغجر الذين سجلوا بوصفهم مسلمين غالبا ما كان لهم أسماء مسيحية النمط (دون التسجيل بأسماء مثل ابن عبد الله وهو اسم يغلب إطلاقه للمهتدين للإسلام حديثا) والعكس كان

أيضا صحيحا حيث وجد للغجر المسيحيين أسماء إسلامية (ففي جماعة ضريبية يرأسها ياني في مقاطعة بونارهيسار تم تسجيل محمود أخا لـ ياني وكوجا محمود وبارا سكيف ابن قاسم على أنهم مسيحيون، وفي جماعة تورالي تم تسجيل ابن حسين من مقاطعة يانبولي وكوستاس ابن أناستاس وتاسوس أخا لـ نيكولا ونيكولا ابن كوشار على أنهم مسلمون بينما جرى تسجيل حسين كيتودا ابن تورالي ورسيم أخي تانار وحسين أخيه وارنافود آخي سيدي ودرويش آخا لـ كوريز وإبراهيم هروزو بوصفهم مسيحيين، وفي جماعة جورروس تم تدوين ابن موهوس من مقاطعة اسكي زارا وكالين ابن إيفان وبوجدان آخي باسكال بين المسلمين، بينما ضم السجل كلاً من إسكندر وحمزة إخوة ماتوس ويانكوس ابن إسماعيل وإيفان ابن اسكندر وإبراهيم ابنه بين أسماء المسيحيين وقد أظهر ذلك الدليل أن نظم التسمية لدى الغجر كانت مختلطة جداً. فاستخدام الأسماء المسيحية والإسلامية التي ربما تعكس الخصائص الموحدة لمعتقداتهم غالبا ما تتغير وفقا للظروف المحيطة.

وهناك بعضٌ من المعلومات في ذلك السجل مثيرة إلى مدى بعيد، هي أن كل أسماء النساء الغجريات تقريبا مسيحية ويفترض المؤرخ التركي م. ت جوك بلجين أن سبب ذلك هو أسلوب الحياة المتنقلة التي يعيشها الغجر الذي أدى إلى احتفاظهم بشكل من أشكال النظم الأمومية في قيادة الأسرة والقبيلة، ولتكريم الأم الكبرى التي كانت بمثابة «حارسة أعراف الغجر»، وهذا التفسير بالطبع تفسير افتراضي وإن لم يكن غير منطقي ويستحق المزيد من البحث.

٣-٧ ماذا كانت أسماء الغجر ؟

ويُعد سجل الضرائب لعامي ١٥٢٢ م - ١٥٢٣ م مصدراً مهماً لأسماء الغجر الذين وصلوا لسن الالتزام بدفع الضريبة ونجد بعضها صعباً في تفسيره، وهو ما أذكره فيما هو آت مصحوباً بعلامة استفهام، وأغلب هذه الأسماء كان يستخدم بواسطة السكان المحليين أيضاً متأثرة قليلاً بلغة الغجر الرومانية، ومن غير المؤكد نسبة ذلك إلى الاستخدام المتكرر لنوعين من الأسماء التي يتنادى بها الغجر في منطقة البلقان، وهما التسجيل الرسمي لاسم تستخدمه السلطات واستخدام الاسم الخاص للفرد داخل الجماعة.

وقائمة الأسماء أقدمها بالترتيب الأبجدي «اللاتيني»، ولكن عندما يكون الاسم مركباً أو مصحوبا بلقب ما للفرد أو لأسرته أو بأي توضيحات أخرى فسوف يتم تصنيفه بصورة منفصلة مثل حالة اسم عبد الله فرانا، أو جيورو تارليش أو بالي بانكو وكارا حمزة وكيور ستيبان وماستور يورجي وأليكشي يوسف وسيماريسا حكيم وعلي بك.. إلخ. والمتغيرات الصوتية لحروف الاسم نفسه كتبتها بصورة منفصلة مثل؛ بالو وباليو أو جورو وجوروس أو جايورا وجايورو.. إلخ، ومن القائمة ندرك أن أغلب الأسماء الشعبية للغجر التي بها متغيرات صوتية كانت في أسماء من مثل؛نيكولا (كولي / كويو) إيوان (يوفان / إيفان / يانكو / ياني / يانو / يانكوس) ديمتري (ديمو / ديمكو / ديموس) محل «ميهال»(ميهو / ميهوس) كوستادين (كوستاس / كوستا)، وإذا جاء ذكر اسم ما أكثر من مرة دونتُ عدد مرات تكراره في السجل بين قوسين

بعد الاسم مباشرة في الآتي:

عبد الله فرانا- عبدو اللا -آيدين- آيدين براتولا - الجايوز - أليكسي وعلي(٢) - علي بك وأنجل(٢)- أناستاس وأندريا(٤) آراب - أرنا فود- أهيربان ديمترى -أحمد - إياس -باز- بايكو وبايو(٣)، بايراكلو- بياكينا- بايكي - باكان،بالابان (٢) - باي بك - بالي بانكو (بايكو) - باليو -بالو - باراكين -باربا - باركو - بارهينا - باستالا - باتيا(تاديا)، باتو - باشا - باشيلكو- بيجياتا(؟) - بيزان - بيزارلي (٤) -، بيهادير - بيكشا - شوشوي، بوجدان (٢) - بوجي- بوزيك - بويكو - بورو - يوسيلكو - برايو، برانيلا -برانيش - برانكو (٢)، براتو - براشو - برايان _ بولاكي - بولاشي(٢) -، برهان - بويوك سيكلو حاجي، شافلي - شاكار - شابوكلي - شيكريا- شيشنجي بولات (؟) - شيو- شيكو زيركر - شيلينجر - شوهو - شوشي - شوشمان- دابي - دافيد لي - دافيد - دافود - دميان- دانو -داركو - داسا - ديفالي - ديدي- ديدو - ديلي يوفان - ديلي يونس - ديلي نيكولا - درويش (٢) درويش علي -، ظافر يرجي- جاهو- جبلي - جيجيكو - جيرو - جورا - جوتا، ديف - ديو - ديمكو - ديميو (٢) - ديمو (٦) - ديمو فلاهوت - ديمو بتري مينا- ديموس رايكو، ديمترى (٨) - ديمترى بيلو، دوبري - دوبرين - دوبرو سلاف، دوجان - دراجا دراجي - دراجيشكو - دراجمان - دراكو مير زركر - دراجوس، دوشنو - دودش - دودو- دويكو- دوكا (٣)، إفرينوس، إجوريدا - إيدجي، قاسم درويش، إيليز دوكا، إيليكشي يوسف، إيرينو، إيفينو، إيفيندو - إيفيندو بول، إفلاكا كوستا،

فاكا، فيليب، شــنجار، فيلور، فوكادجيورو فركو، جايتو - جانو - جايا - جينشــي،نوفاك جيراليــالا، جوجو (٢)، جــورو - جوروس - جردلو - جوشــيرى، جيــورا(٢)، جيورو (٢)، جيــورو تارليــك، هاني مان، حكيم بالي - حمزة - حســن (٢)، هيرجوتا، هيرســتو، هيرســو(٢) هامبو،حســين (٢) - حســين كيثودا، إبرايم، إبراهيم - إبراهيم هروزو، إيفــان (٢) -إيفليــا - إفــرادا - إيفرانا - ايفو، ايلياس (٢) - عيســى «إيسا» بالي، إسكندر (٢)، إسماعيل (٢) - إسماعيل نيكولا، إستويان (٢)، كاليــا(٢) - كالــين - كالكان - كالكــو - كالودي - كالوس - كالون - كاما -، ماشوكا، كارافاسيل - كارافيدا - كارا جورجو - كارا ديمتري - كارا يوفان - كارا أوجلان (٤)- كارا حمزة - كارا جيوز(٣) - كارا جيوز إيدين إسكندر -كارا جيوز أوجلان لار-كارا جيوزتوتويكو- كارادجا(٤) -كارلي - كاســتابا - كاســتوريان، قاســم - كاسينو(؟) -كاسيكي - كابشيرمحمود كيمانشجي هيزير، كيليش، كيراندريا - كيركاراس - كيرياك-كيرياكي - كيرياكو -كيتان- كيرشو - كليمو - كودجــا بــاراك - كودجا محمود -كودجا هــازار، كويلي، كويوكو- كويو (٣)- كوى شــين، كولي - كوفين - كوســتا - كوســتادين (٣) - كوســتاس - كوســتو- كوشبار - كوشــتا، كراجوى (٢) - كرايكو (؟) - كراشــايكو، كوكيش، كولا جيوز،كولاك استيبان، كوما نيكولا - كومــان (٢) -كوريز(؟) - كيرت- كورتاك- كوشــار - كوشــارى - كــوش - كوشــي - كيــوز بالابــان - كيــوز بوي - كيــوز نوفاك - كيوز بــارد _ كيوز ســتيبان -كيوتشــوك كاســتو، لازار، لالاموس، لالا

(٢) - لالـي - لالكـو- لامبو -لاسـكاري - لـولا - لـوكا ، مافزاري ، مالكوش ، ماما لاسـين - ماناسـيا(٢) - مانجينا - مانو(٢) -مانول - ، مير - ماركو - ، ماركو (٢) - ماركو مصطفى ، مارتين - مارتو - ما «ي» ستور نيكولا - ماستوريان(٣) ، ماتو - ماتوش ، محمود ، ميلتوش باشتا - ميلتوش بيرشـيا ، محمد ميلاهرين ، مايلي - ميلكو ، ميركشا ، محل «ميهـال» (٢) - ميهو (٦) - ميهـو بيلونا - ميهوس ، موتو ، مظفر - مظفـر دوكا - مظفر افنديش ، موزيك «ى» ، مراد ، موسـى(٩) ، مُسَـلّم مصطفى ، مسـلمان كارا حمزة بن عبد الله - مسـلمان بيشو - مسلمان خورخـايٍ، مصطفى(٣) - موسـترا - موهوس ، نعيـم كارادجا ، ناكو ، ناراندجي ، نالدجي قاسـم ، ناسـوه ، نيسـران ، نيكولا (١٤) - نيكولا كيشـيش ، نيني ، نوفاك (٢) ، أوليفر (٢) ، أورروك ، باجوسلو ، باندروبا (؟) ، بـازو ، باراسـكيف ، بـاروس باسـكال ، باتي ، باشـان ، بيو (٥) ، بنشـو ، بيتكـو - بيتروس ، بيشـي ، بيبركـو ، بيناري أوجـولار ، بلاف ، بريزوا (٢) ، برودان ، بوليسـترا ، بريبو ، راد (٣) - رادو سـاف - رادو سـلاف - رادول ، رايـان ، رايكـو ، (٤) - رايو _ رالـي ، رمضان (٢) ، رسـيم ، ريبيكا ، ريوس موسـوس ، ريشـا - ريشـالو ، روند(؟) ، ساكي ، سارة كونسـتاندين ، ساركو ، سيدى ، سيفر كاسـتو ، شاملولار ، شيزو ، شيو ، شـيرميرو (٣) - شـيرميرد بانشو ، شيشو ، شـوموس ، شاركو ، سـيفي ديلي بيلينا ، سيلين ، سيماريسـا حكيم ، سيمكو ، سيمو زيركر ، سـينادين ، سينان (٢) ، سـيروفين (؟) ، سوكوفالي (؟) بك ، ستيبان ، سُـليَمان ، صوفي مصطفى ، سـوهو جارلو ، تازيل ، تاسـوس ، تاتار (٤)

- تاتــاس -تاتــو (٢) - تاتوس (٣) - تاتوشــي - تاتوش - تاتوشــين (٢) - تاشــو ، تيفيكي ، تيتو ، تيجران ، تيمرجي هزير ، توماس ، تودور (٧) ، تروشانلو ، تسوتسو لاسي ، توين رايكو ، تورالي (٢) ، تورشانبا ، أوجــلاش - أوجليــش - أوجرين (٢) ، نوفكو ، فاردار - فاردو ، فاســيل (٢) ، فــلاد - فلاديــن يانو - فلاداك شوشــوي ، فلايكــو (٢) ، فالايا ، فوجــوس بوتــاش ، فوى فــودا ، فرانــكا ، فالكاشــين ، زيــزو (؟) زوبان ، ولاتار ، زوراليا ، ياكو ، ياند ، ياني (٣) - ياني شــاكال - ياني شيروز - يانكو (٣) - يانكوس - يانكولا - يانو (٣) ، ياراماز ، ياركو ، يهشي ، ياشكو ، يايان ديمو - يوفان(١١) - يوفكوديوجا ، يونس (٢) ، يورجى - يرجــى كالوير - يرجــى بانديم- يورجو - يورجو إلاد (؟) . بوشــي ، يوريو «بوريو» ، يوسف - يوسف أوجولار ، يوهينو .

٣-٨ القانون المتعلق بالغجر في مقاطعة روميليا

صــدر القانــون الخــاص بالغجر في مقاطعــة روميليا بمعرفة الســلطان ســليمان الأول «العظيــم» عام ١٥٣٠ م ، ويســاعدنا فــي الوصول لفهم أفضــل للمعلومات المتجمعة من ســجلات الضرائــب القديمة ، حيث ينص هذا القانون على نقاط منها :

١ - يدفع الغجر المســلمون من مدن اســتانبول وإيدراين وأي مكان آخر في روميليا مبلغ ٢٢ أكشه عن كل أسرة ولكل فرد غير متزوج ، والغجري «المســيحي» يسدد ٢٥ أكشه ، أما بالنســبة للأرامل ، فالواحدة منهن تدفع أكشه واحدة فقط ضريبة تسمى هنا «الرّسم» .

٢ - الزوجات «من الغجر» القاطنات استانبول وإيدراين فيليبي وصوفيا

واحترفن مهناً غير قانونية يدفعن ١٠٠ أكشـه جملة كل شهر للسلطات القضائية.

٣ – يدفع الغجر رسوم الزواج والغرامات المقررة للجرائم والأعمال غير الشرعية مثل بقية الرعايا وفقا لما يحدده القانون.

٤ – الغجر الذين يُبدون عناداً ويجولون بعيداً عن مقاطعاتهم الرسمية أو يَسْتخفون بمقاطعات أخرى أو بالأفنية الخلفية للمنازل، يجب العثور عليهم وتحذيرهم ومعاقبتهم بحزم وإعادتهم إلى مقاطعاتهم، ويتم تكليف قادة جماعاتهم وعُمَد قراهم، بالإضافة إلى آخرين من المخصصين بتلك المهام بالعثور عليهم وإعادتهم وهذا واجب التنفيذ، حتى يكونوا موجودين دونما إخفاء لأماكن إقامتهم عند استحقاق الضريبة للسلطان أو لوجوب دفع التزامات أخرى.

٥ – الغرامات والضرائب المعتادة والجزاءات الموقعة في جرائم الاعتداء الخطيرة بالإضافة إلى ضريبة البادوهافا «غرامات العقوبات الشخصية» المفروضة على الغجر داخل السنجقية أو المقاطعة تخص رئيس تلك السنجقية، ولا يتدخل أي مسؤول من الإدارة المحلية أو الجيش في هذا الشأن، ويستثنى من ذلك الغجر الذين تم تسجيلهم كأقنان أرض في إقطاعيات وأراضي السلطان.

٦ – تجمع الضرائب المفروضة على الغجر في الأراضي الإقطاعية المذكورة عالياً من زعيم الرعية بالمنطقة، أو رئيس الغجر بالسنجقية، أو رؤساء الإقليم في كل مقاطعة، وليس للشرطة أو المسؤولين الآخرين أي حق في التدخل في أمورهم.

٧ – إذا انتقل الغجر المسلمون مع غجر غير مسلمين وعاشوا واندمجوا معهم، يجب تحذيرهم، وبعد إنزال العقوبة بهم، يقوم الغجر غير المسلمين

بسداد الضريبة كالمعتاد.

٨ - الغجر الذين يقعون ضمن ملكية حددتها إرادة السلطان عليهم سداد ضريبة السلطان فقط (هاراش بادي شاهي) ولا يدفعون ضريبة الأرض وبقية الضرائب المعتادة الأخرى.

٩ - يدفع غجر مقاطعتي برانيشيفو وسميديريفو مبلغ ٨٠ أكشه عن كل أسرة.

١٠ - يقوم زعيم الغجر في مقاطعة نيكو بول (في زمن الحرب) بالخدمة في هذا الإقليم.

١١ - يقوم غجر نيكوبول - الذين يدفعون ضريبة الأرض عن كل عائلة - بسداد ٦ أكشه لممثليهم المعينين كرسوم معادلة.

١٢ - يقوم زعماء الغجر في منطقة نيش (وذلك في زمن الحرب) بالخدمة في إقليم سميديريفو، ويقوم باقي مسؤولي الإقطاعية بالخدمة في إقليم الباشا.

ويشير ذلك القانون مرة أخرى إلى الوضع الخاص للغجر بالنسبة للمجموعتين الرئيسيتين بالإمبراطورية العثمانية ويقصد بهما جماعة المؤمنين (المسلمين) وجماعة الرعايا (المسيحيين) وهو يؤكد أن الغجر المسلمين وتحديداً رؤوس العائلات والرجال غير المتزوجين كانوا يدفعون ٢٢ أكشه بينما كان غير المسلمين يدفعون ٢٥ أكشه وعلاوة على ذلك كانت كلتا المجموعتين تدفعان رسوم الزواج وغرامات الجرائم والمخالفات مثلما يدفعها بقية الرعية تماما، أي مَن هذا المنظور لم يكن هناك أي اختلاف ذي شأن بينهم، بالإضافة إلى أن التمايز بين الفئات المختلفة من

الغجر، مع استثناء هؤلاء المنتمين لما يسمى سنجقيات الغجر،فلم يكن واضحاً ولا محدداً بصورة ملموسة كما لم يكن واضحاً من ذلك النص - أيضاً- ما إذا كان أولئك المدعوون «زعماء للغجر» من مقاطعة نيكوبول، وعليهم التزامات حربية وأعضاء في الإدارة العسكرية، هم من الغجر حقيقة أم لا؟ ويكشف ذلك القانون كذلك طموح الإدارة العثمانية في ضمان تجميع هذه الضرائب كاملة من كل فرد بما في ذلك الغجر الرُحّل الذين يجب توجيه انتباه السلطات الضريبية نحوهم بشكل خاص وقد تم تعيين عدد من أعضاء جماعات الغجر مسؤولين عن جمع الضرائب كضمان بأنهم سوف يسلمونها في موعدها بالإضافة إلى مسؤوليتهم عن عدم سدادها للسلطات ونتيجة لذلك علينا ألا نندهش إزاء وجود حقوق معينة للحكم الذاتي، ووجود استقلال نسبي تشريعي ضمنه القانون للغجر، وقد تأكد ذلك الوضع بأدلة أكثر وضوحاً، منها مثلاً صدور فرمان من السلطان سليم الثاني عام ١٥٧٤ م الذي يجبر عمال المناجم الغجر من منطقة بانيا لوقا - الذين يتمتعون بامتيازات خاصة - على تقسيم أنفسهم في جماعات كل واحدة منها تتكون من خمسين فرداً وتختار كل جماعة رئيسها الذي سيكون مسؤولاً عنها أمام السلطات..

وينص ذلك الفرمان على الآتي:

تُعد جماعات الغجر الموجودة بمنطقة البوسنة معفاة تماماً من الضريبة الشخصية ومن الضرائب الوقتية الأخرى(تكاليف اليورفي) ومن الضرائب الإضافية (أفاريز)، وبالنسبة للغجر المذكورين عاليه يجب انتخاب فرد واحد لكل مجموعة مشكلة من خمسين فرداً ليكون قائداً

لهـا (باشـي جماعـت) وليس لأحـد أن يتدخل فـي شـؤونه أو يحد من سـلطته بأي شـكل، ولو خرق أي شخص القانون تتخذ إجراءات اعتقاله بعد توفير الضمانات بواسـطة الجماعة وبواسـطة قائده، وتنعقد جلسـة استماع شفهية حول الموضوع. وقد تقرر وجوب اشتغال الغجر في أعمال الحفر بالقرب من كامينجراد على أن يتم مدهم بمتطلبات حياتهم اليومية، وهذا ينطبق أيضاً على الجماعة التي تقيم خارج نوفي بازار (يني بازار)، وعـلاوة على ذلك،(فإني آمر أنـه بمجرد وصول هذا الفرمان السـلطاني طرفكـم، عليكم أن تبحثوا تلك المشـكلة، وعليكـم أن تتأكدوا بدقة ما إذا كان الغجـر المذكورون عاليـه قادرين على العمل في تلك الحفائر على أسـاس أنهم معافـون من الضريبة كما هو موضح سـابقاً، وعليكم طلب المشـورة إذا عنّتْ لكم ملاءمتها من الأشـخاص المناسـبين الذين يثق فيهم السـلطان، وبعـد هذا يتوجـب عليكم تسـجيل وتصنيـف الغجر محل البحث في سـجلات بشـكل دقيق بقدر الإمكان وإرسال تفاصيل الموقف لنا).

٣-٩ غجر السنجق - الغجر في الجيش العثماني

يؤكـد القانون المذكـور سـابقاً تمايـز الإدارة الخاصة والحالـة القانونية والحقوق الممتدة والحكم الذاتي لأولئك الناس الذين يعيشون في سنجقية الغجـر (ليفـا القبطيـان) وكان هنـاك كذلـك قانون خاص للسـنجقية يتعلـق بقائـد سـنجقية الغجر ١٥٤١م يكرر بشـكل أساسـي - ولكن بتفصيـل أكثـر - البنـود الأساسـية للقانون المذكـور أعـلاه، وفي تلك

الحالة لا تستخدم كلمة سنجقية على أنها وحدة تحديدٍ لمساحة أرضية، وإنما تُستخدم بمعنى جماعة من الأهالي الغجر الذين يقدمون معاونات خاصة في خدمة الجيش، حيث ينقسمون داخل السنجقية إلى سرايا مع وحداتها المعاونة (الياماك) ويكون لها قواعدها بالقرب من الحصون العثمانية، وعلى رأس كل مجموعة يأتي القائد غير الغجري (مير ليفا) ويكون مسؤولاً عن أربعة من الضباط وعن أحد عشر من العرفاء، ويقيم زعيم الغجر (رئيس سنجقية) في مدينة كيرك كليس (وهي موجودة بتركيا الحديثة الآن) وتتشكل من عائلات الغجر في هيرابولو وفيزا وكيشان وكورلو وبونار هيسار وديموتيكا وجيومور جينا وفير وايسكي زارا ويانبولي ومناطق أخرى، أساساً تمثله منطقة ثراس الحالية، ولقاء خدماتهم تسلمت تلك الجماعات - وعددها ٥٤٣ - ما جملته ٤٤٩ قطعة أرض في سبع عشرة منطقة من روميليا، وهذه التطبيقات نُفذتْ أصلاً في إقليم أناتوليا (الأناضول) لكن تم تعديلها وتطبيقها بصورة أوسع على الغجر في منطقة البلقان وقد أدى أعضاء تلك الجماعات أعمالاً معاونة للواجبات العسكرية، وليس في النشاط الحربي ذاته، كما أن الغجر تم تجنيدهم في الجيش، حيث يوجد دليل من عام ١٥٦٦ م على أن بعضاً من جماعات دافعي الضرائب قد اسُتدعوا لأداء الواجب العسكري (الوجاق) وهم من الغجر المسلمين وبالإضافة إلى عدد كبير من المجندين من مربي الماشية الأتراك (اليوروك) الذين أتوا للبلقان من آسيا الصغرى في ذلك العصر، وقد أحصى بول رايكوت مابين ٤٧٢١ إلى ٥٠٠٠ مجند من أمثال هؤلاء في الجيش العثماني خلال القرن

السابع عشر، كان من بينهم ٥٢١ جندياً غجرياً، وكان يتم تسجيل خمسة أفراد من بين كل ثلاثين فرداً في الجيش النظامي، في حين يقوم الـ ٢٥ الباقون بتوفير الخدمات المعاونة خلف خطوط الجبهة، ولو كانت إحصاءات رايكوت صحيحة فلابد أن الجيش العثماني كان يحوي ما بين ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ من الغجر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وقد استمر استخدام الغجر في الجيش العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، إذ يذكر راهب صربي في تقاريره السرية التي كان يرسلها للجيش النمساوي عام ١٧٣٧م أن دفاع مدينة كوسوفو قد تُرك بأيدي الغجر، في حين قام الغجر مرة أخرى عام ١٧٨٨م بأداء دور في الدفاع عن كوسوفو ضد الغزاة النمساويين.

٣-١٠ الغجر الرُحل

كانت العقوبات الموقعة على الغجر المسلمين الذين لم يستقروا (استمروا في حياة الترحال) بالإضافة إلى الغجر غير المسلمين مناقضة للمبدأ الأساسي في السياسة الضريبية للإمبراطورية العثمانية التي نصت على أن يسدد المسلمون ضرائب أقل من نظرائهم من المسيحيين أو اليهود، وقد وضحتْ أسباب تلك السياسة من النص المذكور سابقاً والمتعلق بالغجر في مقاطعة روميليا الذي أصدره السلطان سليمان العظيم، حيث جاء الشرح التفصيلي بأن الغجر الذين يتجولون خارج حدود مقاطعاتهم الشرعية يجب البحث عنهم وإعادتهم حتى يمكن

ضمان وفائهم بالتزاماتهم الضريبية ولم تكن المُشْكلة في الأساس اختلاط الغجر المسلمين بأولئك من غير المسلمين لكن حقيقة كونهم في حالة ترحال يؤدي إلى عدم دفع ضرائبهم بانتظام، وفي هذا الاعتبار تأتي ملحوظة تم إلحاقها بسجل ضرائب عام ١٤٩٨م المذكور سابقاً واضحة الدلالة على ذلك، وهي تتعلق بجماعة (ماركو مصطفى) التي تتكون من المسلمين الذين اهتدوا مؤخراً من المسيحية إلى الإسلام.

«إنه السلطان الذي أمر بأن يسدد المسلمون الذين يغادرون جماعاتهم ضريبة الأرض شأنهم شأن كل غير المسلمين.

وفي بعض الأحوال كانت السياسة الضريبية وسيلة لتنظيم حركة الغجر داخل حدود الإمبراطورية بالإضافة لكونها وسيلة لتغير البنية الديموجرافية (السكانية) في بعض الأقاليم ففرمان السلطان الذي صدر عام ١٦٣٧م - على سبيل المثال - يصنف الضرائب والرسوم التي كان على الغجر دفعها كالآتي: ضريبة الرأس - ضريبة الأرض وضرائب أخرى (مثل اليوفا والكاشكون، والبادوهافا ونيرها)، وفي الجملة كان على الغجر المسلمين سداد ما قيمته ٦٥٠ أكشه، في حين كان غير المسلمين يدفعون ٧٢٠ أكشه، ولم يكن الاختلاف بين المجموعتين أكبر مما كان عليه في السنوات المبكرة وعلى أي حال ففي أمر السلطان الجديد (الصادر في العام التالي مباشرة ١٦٣٨م) ثبّتَ ضريبة الرأس على الغجر المسلمين مبلغ ٢٠٠ أكشه للمقيمين في منطقة روميليا، في حين لم يكن على الغجر المسلمين والجماعات المماثلة من الرُحّل الذين وصلوا - حديثاً وقتها - في منطقة أناتوليا (الأناضول في آسيا الصغرى) دفع

هذه الضريبة، كما كان مبلغ الضرائب والرسوم الأخرى التي كان يجب على هاتين المجموعتين دفعها مختلفاً كذلك، وهذا تمايز لا نراه في مناطق أخرى.

وتعكس الوثائق العثمانية الباقية في تلك الفترة بتفصيل كبير رغبة الإدارة في إضافة السكان الغجر لسجلاتهم ودفعهم لسداد الضرائب المطلوبة، حيث يتم تسجيل العمر والمهنة والعائلة مع العناصر الأخرى، واعتادت تقسيمهم إلى مجموعات ضرائبية لكل منها رئيسها الاعتباري، وتنقسم تلك المجموعات بدورها إلى وحدات أصغر على أساس الحي الذي يقطنه الغجر في كل قرية أو مدينة. ولكل من هذه المجموعات زعيمها الخاص والمعروف باسم (كيتودا) أو سيد الجماعة وهكذا يتم تطبيق مبدأ مسؤولية الجماعات المحدودة الذي كان نظاماً نموذجياً للتوجه العثماني نحو رعاياها داخل الإمبراطورية.

وتربط تلك الوثائق - دائماً - بين ضرائب الجماعة وبين وحدات أرضية معينة حتى في حالة وجود غجر رُحل، وتشير إليهم باسم المتجولين (جيزينندي) لكن مدى نجاح وكمال احتواء أولئك الرُحّل لم يكن واضحاً، حيث يبين سجل عام ١٥٢٢م - ١٥٢٣م إحدى عشرة جماعة من الرُحل فقط مسجلة لأغراض ضرائبية في قرى معينة، ومنها على سبيل المثال:

- أراضي إقطاعية مصطفى باشا.
- مقاطعة فيليبي:

جماعة بدو باشاف ابن بايو، أتوا من صوفيا ويعيشون في قرية

ميركوفو مع الغجر المحليين تحت إدارة زعيم الغجر، والعائلات المسيحية عددها سبع، والدخل ٢١٠ أكشه.

● مقاطعة لوفشا:

جماعة بدو ميهو بيلونز، موجودة في منطقة مستنقعات بيليفن، وعدد العائلات المسيحية سبع والدخل ٢١٧ أكشه.

وتوضح وثيقة من عام ١٥٥١م رغبة الإدارة العثمانية في دفع أولئك الرُّحّل إلى انتهاج حياة مستقرة.

«تقوم جماعات الغجر بقيادة أنواع جيدة من الخيول، ولا يستقرون في مكان بعينه وينتقلون من مدينة لأخرى، ومن مكان لمكان ينهبون ويسرقون، فيحدثون قلقاً ومشكلات للسكان وطالما لا توجد تعليمات منظمة لقيادة الخيول ولا حظر على امتلاك الصالح منها للقيادة، فقد أصدرت تعليماتي أنه عند قدوم أي قبيلة غجرية تحت ظل السيادة العثمانية يجب إخطارها مقدماً أن أفرادها لن يمتطوا الجياد وإنما سيستخدمون الحمير والثيران بديلاً في تحركاتهم، بالإضافة إلى نبذ حياة الترحال للاستقرار والعمل بالزراعة، ومن الآن فصاعداً يجب إرغامهم على بيع خيولهم وإذا ما اعترض أحد تجب معاقبته بالسجن».

وتمت إعادة تلك التعليمات عام ١٥٧٤م ومدت آثارها إلى لاعبي الأكروبات من الغجر باستانبول الذين منعوا من استخدام الخيول، وعلى كل، من الواضح أن هذه القواعد ومعها بعض تعليمات إدارية أخرى محتملة ومماثلة كفرمان ١٦٣٠م الذي أصدره السلطان مراد الرابع حاول به إرغام الغجر على الاستقرار والالتزام بمقار إقامة دائمة لم يكتب لها

النجـاح ، ففي مجال التطبيق العملي كان محـالاً إجبار كل الغجر الرُحّل على الإقامة الدائمة ولم تنظر إليهم السلطات على أنهم يمثلون مشكلة خطيـرة ، كمـا يوجد – على أي حال – دليل آخـر لمعايير مغايرة من أجل تحقيق هذا الهدف الذي قدمناه هنا ، وهي تعليمات خاصة – على سـبيل المثـال – قد حُفظتْ لنـا ، تصف كيفية التعامل مع الغجـر الذين غالباً ما غيّروا محال إقامتهم أي عاشوا حياة الترحال دوماً .

حيـث يمكن قراءة أحد نصوص فرمان أصـدره الحاكم الإقليمي لمقاطعة البوسـنة عام ١٧٩٩م كالآتي : «في الماضي صدرت ضمانات بأنه ستصدر تعليمـات منظمة تتعلق بكيفية اسـتقرار الغجر بالمدن لكي يمتهنوا حرفاً محـددة ولا يرتحلون – برغـم ذلك – فقد نما إلى علمنـا أن مجموعة من الغجـر المذكورين قد هجروا أعمالهـم ويتجولون حول القرى ويرتكبون أعمـالاً مخالفة مثل السـرقة وإحراق الممتلكات وبهذا السـلوك الأحمق يسـببون الأذى للآخريـن ، لـذا آمر بأن يتـم القبض على تلـك المجموعة المذكورة آنفاً ومعاقبتها وفقا للقانون حالما يتم كشفها وقت الجريمة .

وفي الحقيقة كان تسجيل الغجر في الوثائق الرسمية يتم فقط في حالة ارتباطه بالاسـتقرار المؤقـت لهم (وهو عادة في الشـتاء) ، وكان نموذج الترحال الفصلي –نسبة لفصول السنة– وغير المنتظم –هو الترحال خلال الفصل الدافئ ثم قضاء الشتاء في مكان واحد– غالباً في منطقة البلقان ، ولا ندري إذا ما كان ذلك النمط من الحياة والمعيشة قد جلبه الغجر معهم أم فرضتـه عليهم الظـروف الاقتصادية والاجتماعية فـي البلقان ! وماذا كان دور الإدارة العثمانيـة –في هذا الشـأن– آخذيـن في اعتبارنا تعمدها

ضم الغجر في سجلاتها الضريبية وربطهم بقرى معينة، وعلى أي حال تعكس أغلب المعلومات الواردة إلينا في تلك الفترة صورة حياة القبائل الرُحّل أثناء وقوفهم لدى المناطق الآهلة بالناس.

ويمكن استخلاص بعض الأفكار عن حياة الغجر أثناء ترحالهم من دلائل الإجراءات القانونية، التي منها -على سبيل المثال- الشكوى المحفوظة من عام ١٦٣٤ م التي قدمها فلاحو سربتس باشا في منطقة بيتولا القضائية:

« .... يأتي الغجر الرُحّل غالباً إلى قريتنا ويعيشون في المنازل الخاوية والأجران............. ويسرقون الدجاج والحملان والغنم والملابس ويقطعون الأشجار والغابات وهم يسببون لنا المشكلات ونحن نلتمس منعهم من المجيء إلى قريتنا».

وكان قرار المحكمة توفيقياً حيث قالت «يمكن للغجر المجيء للقرية، لكن عليهم دفع قيمة ما تسببوا في إتلافه»..... وفي شكوى مماثلة سُجلتْ - أيضا في إجراءات متعلقة بالتقاضي في منطقة - بيتولا لكنها تعود لعام ١٦٣٦ م، كان فلاحو جابياني في بيتولا يشكون من وجود الغجر المشردين والمشاكسين « الذين يسرقون ويتلفون حقول القرية» وكان القرار - في هذه الحالة- مختلفا عن حكم المحكمة السابق حيث يحظر تحديدا على جماعات الغجر البقاء في تلك القرية بالإضافة للقرى المجاورة.

٣-١١ توطين الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية

حدثت عمليات نشـطة لتوطين الغجر فـي مدن وقرى البلقان، والغجر الذين اسـتقروا عاشـوا في أحياء خاصة بهم تسـمي «المحلات»، وكان هذا مبدءا أساسـيا لكل جماعات الأقليات فـي الإمبراطورية، وكانت عملية التوطين شـاملة لكنها بالطبع لم تشـمل كل الغجر الذين يعيشون في ظل الإمبراطورية، وبجوار ذلك انتشـر نمط جديد من الحياة شبه المتنقلة شيئا فشـيئا، مع وجـود قاعدة ثابتة لهم شـتاء وحالة من التنقـل بعيدة المدى فـي إطار حـدود كل مقاطعة بصورة فعلية، وليس مـن الغريب أن نجد في سـجلات العـام ١٥٢٢م - ١٥٢٣ م المذكورة آنفـا أن غالبية الغجر (بمن تم تصنيفهـم كجماعات مـن الرُحّل) لهم محال إقامة دائمة، وقد حدثت حـالات توطين مماثلة فـي مقاطعة أناتوليا «الأناضـول»، إذ لاحظ الرحالة العثمانـي الشـهير إيفيليا سـيليبي (١٦١١-١٦٧٩) أن أغلب الغجر الذين عاشـوا هناك قد توطنوا، وذلك في القرن السابع عشر، وفي بعض الحالات ترك الغجر حرفهم التقليدية ليمتهنوا حرفة الزراعة التي مارسوها فـي إطار نظام الملكية الزراعية الإقطاعي أو إقطاعيات ضباط الجيش ذلك النظام الذي كان قائما حينذاك.

مثـلا ففـي سـجل للإقطاعيـات في إقليـم صوفيـا - يعود إلـى عامي ١٤٤٥م -١٤٤٦م، توجـد معلومـات مفصلة حول إقطاعية يملكها علي الابـن بالتبني لكارا حاجي والتي انتقلت إلى«سـات» ابـن على الإدريني عـام ١٤٤٧ م والتـي شـملت قـرى أوْرلاندوفتش وهي جـزء من صوفيا اليوم وراكوفيتسـا (في مقاطعة صوفيا) وجرابا (في مقاطعة بيروت)

ودابيجيف (ربما قد تكون اختفت)، ومن المستحق أن نوجه للأخيرة اهتماما خاصا وهي الأصغر (قرية دابيجيف) فهي تتكون من ١٥ عائلة مكتملة وثلاث أرامل من العوائل الذين يخصهم السجل تحديدا «بأنهم من الغجر» وبمقارنة نسب الدخل بين رؤساء من قريتي أورلاندوفتشي وجرايا، نجد أنه بينما يحصل الرئيس في كل من قريتي أورلاندو فيتش وجرايا متوسط دخل قدره ٩١ أكشه من كل عائلة أو أسرة، وفي راكوفيتسا على متوسط قدرة ٤٣ أكشه، إلا أنه يحصل على ١٦ أكشه من كل أسرة في دابيجيف فقط مما يعني أن الغجر في الإقطاعيات يقعون في أدنى السلم الاجتماعي معيشة.

وبعد عقود قليلة لاحقة ذكرتْ قرية دبيجيف ثانية في أحد سجلات الإقطاعيات المملوكة لسات ابن علي في مقاطعة صوفيا وساموكوف تعود -بالكاد- إلى الربع الثالث من القرن الخامس عشر، إذ تؤكد السجلات مرة أخرى على «أنهم من الغجر» لكنها تذكر خمس عائلات فقط وهم عائلة كالويان ابن نيكولا وكالومان ابن راد وكويو ابن ليسكو وجوري ابن راديتسا وفوديل ابن عبد الله، ووضح أن عدد دافعي الضرائب قد تقلص بسبب انتقالهم إلى أراضٍ إقطاعية أخرى على سبيل الاحتمال، كما يمكن ملاحظة ظهور الأسماء الإسلامية - كذلك - إذ تعد تسمية «ابن عبد الله» نمطا قياسيا إسلاميا، وقد أُستخدم - كما ذكرنا من قبل - للإشارة إلى المسلمين المهتدين حديثا. وجادل بعض المؤرخين (وبخاصة م.ت. جوك بيلجين) على الدليل المأخوذ من سجلات ١٥٢٢-١٥٢٣م (والذي ذكر فيه أن معلومات الرسوم المدفوعة للدولة على شكل إنتاج

زراعي منقوصة تماما) بأن مشـاركة الغجر في العمل الزراعي كان متقطعاً وفي معظم الحـالات واصل الغجر احتفاظهم بمهـن وحرف معينة ، وعلى كل فأغلب المؤرخين يميلون للاعتقاد بأن لتلك الحالات الاستثنائية أسباباً يجب البحث عنها في الظروف الخاصة بالغجر وبالخصائص المحددة للنظام الضريبي العثماني الذي ارتبط باستخدام الأراضي ، ويمكننا أن نذكر مثالا لتأكيد ذلك من الممارسات المذكورة في قانون إقليم سيليسترا الذي يعود لعـام ١٥٦٩ م حيث جاء ذكر جماعة من دافعـي الضرائب الغجر يوجد فيها اثنتا عشـرة عائلة وسـبعة من دافعي الضرائب غير المتزوجين الذين تتضح التزاماتهم كما يأتي :

«الغجـر الذين يتوقفـون في الإقطاعية ويسـتعمرون قطعـاً من أرضها يدفعـون الرسـوم والضرائب الخاصة بالأراضي ليـد مالك الأرض في حين يسددون باقي الضرائب المقررة في المقاطعة التي دفعوا فيها تلك الضرائب من قبل»

وقـد ذكرت معلومات جاءت في سـجلات الإجراءات القضائية لإقليم صوفيا من بداية القرن السـابع عشـر أن من بين تلك الضرائب التي كان يدفعها الغجر ضريبة «الانتقال» على بيع محال الإقامة والمقدرة على ٢٢ منزلاً وضريبة على «الأغنام» ولدينا هنا بالتحديد دليل على وجود محال إقامـة دائمة وعلـى درجة واضحة من الثراء بين الغجـر ، وهناك دليل آخر على وجود غجر أثرياء نسبيا ففي عام ١٦١١ قام الغجري ستيفان ببيع منزلـه فـي صوفيا بالإضافة إلى بيـع محله وبعض أشـجار الفاكهة مقابل ٢٤٠٠ أكشه .

٣-١٢ توزيع التزامات جمع الضرائب «نظام الملتزم»

وبمرور الزمن بدأت ممارسة عمليات تقسيم عقود جمع الضرائب المستحقة على الغجر -بالإضافة للضرائب المستحقة على كل رعايا الإمبراطورية- في الاستقرار في ظل العثمانيين. وللغرابة فإن الممارسة المقبولة كانت مسؤولية جمع الضرائب تتوزع هبوطا ليس فقط حتى مستوى الوكيل-الذي اشترى حق جمع تلك الضرائب- وإنما تتفرع مسؤولية إسنادها حتى يكلف بها ممثلو الغجر أنفسهم، فوفقا لفرمان السلطان لعام ١٦٣٨م بشأن توزيع عقود جمع ضرائب الرأس من الغجر والمجتمعات البدوية الأخرى أن يكون لكل خمسين فردا منهم من الخاضعين للضريبة «رؤوس العائلات» مسؤول واحد يسمى شيري باشي معيناً ليكون مسؤولاً عن عدم سداد الخاضعين للضريبة المستحقة وعلى المسؤول المعين توفير المبلغ المطلوب، ثم يكون له الحق في استرداده من أقارب ذلك المتهرب من الدفع.

ويمكن أن نجد دلائل أكثر تفعيلاً لنظام تحصيل الضرائب وبداية التغيرات التي حدثت لحالة الغجر الاجتماعية وأوضاعهم الضريبية في فرمان السلطان أحمد الأول الذي يعود إلى عام ١٦٠٤ - ١٦٠٥م الصادر إلى حكام أقاليم الباسان، فالونا، ديلفينو، يانينا ومقاطعات أياتوليا التي كانت إقطاعيات للسلطات المسلمة في أكارنينا، ووفقا لذلك الفرمان منحت المسؤولية للقائد الحربي سليمان - مالك تلك الإقطاعية الضخمة - لدفع كل الضرائب المتنوعة عن الفترة من ١ مارس ١٦٠٤ وحتى ١ مارس ١٦٠٥ م لخزانة السلطان مباشرة شاملة ضريبة الرأس وضريبة الأرض والرسوم والغرامات والجزاءات بالإضافة لباقي العوائد التي

يجب جمعها من الغجر المقيمين والمسجلين كدافعي ضرائب، وكذلك من قاطني الخيام منهم الذين كانوا رُحّلا ولم يسجلوا كدافعي ضرائب، ووجب على أولئك المسؤولين المحليين التعاون في جمع الضرائب التي فرضت بمبلغ ١٨٠ أسيري(١) للمسلمين و٢٥٠ أسيري للمسيحيين، مما يعني أن تغُيرا ما حدث لمعيار فرض الضرائب لكل الغجر وليس فقط لأولئك الذين ضمتهم المجتمعات الخاضعة للضريبة، وليس لأحد أن يضع عراقيل أو عوائق أمام تنفيذ هذا العمل، وأن على المسؤولين التأكد من عدم وجود أي شخص يشكل اضطرابا أو قهرا للمجموعات العرقية في تلك المسألة».

وقد وجه الفرمان عناية خاصة للمشكلات التي تواجه القبائل الرُّحّل من الغجر، لو انتقلوا ولم يسددوا ما عليهم من ضريبة، إذ على السلطات القضائية المحلية إيجادهم وإجبارهم على سداد ضرائبهم وتغريمهم علاوة على ذلك مبلغ ٣٠٠ أسيري[١]، وأن غيابهم عن المقاطعة لا يجب استخدامه مبررا لعدم السداد، كما تعامل الفرمان أيضا مع المشكلات التي قد تنشأ من سداد الضرائب بالنسبة لنوع النقود كذلك. وبالنسبة للغجر المقيمين تعامل الفرمان مع القضايا المتعلقة بالضرائب وطرق جمعها من أولئك المقيمين بالأرض المخصصة كأوقاف أو إقطاعيات بالإضافة إلى أنه ألزم الحكام بألا يسمحوا للإدارة العسكرية المحلية بمضايقة أو ظلم

1 – الأسيري وحدة صغيرة من العملة العثمانية صكت في استانبول في ظل الإمبراطورية العثمانية. (المترجم).

الغجـر ، وذلك يبين أن سياسـة ربط الغجر بـالأرض وبالملكيات في ذلك الوقت قد بدأت بصورة واضحة حيث يقول في موضع آخر : (يقوم بعض الإقطاعيين من ملاك الأراضي مثل الانكشـارية والمواطنين الأصليين وباقي رجال الدولة بإخفاء الغجر المقيمين في منازلهم ومبانيهم ومزارعهم ، ولو كان ذلـك يحـدث حقيقة ، فاقبضـوا عليهم وانفوهـم ، وإذا لم ينصاعوا للأمر فأخطرونا بأسمائهم وبمقاطعاتهم) .

وقـد أوضـح الفرمـان أن الدولـة العثمانية قد بـدأت بالفعل فـي إلغاء الامتيازات الضريبية التي اختصت بها فئات محددة من الغجر .

(وبالنسبة للمقيمين من الغجر الذين يقولون إنهم حدّادون ووقّادون[١] وحـراس للغابات ولذا فهم معفون من الرسـوم والضرائب فلا تصدقوهم بشـأن ذلـك الإعفاء ، وإنمـا حصّلوا منهم مـا يتوجب عليهـم دفعه وفقا للسـجلات حتـى آخـر «مليـم» ولا تسـمحوا لهم بوضـع عراقيـل أمام ذلك) .

وقـد تأكدت عمليات توزيع وتقسـيم مسـؤوليات جمع الضرائب من الغجـر فـي السـجلات الضريبيـة لإقليم صوفيـا عـام ١٦٠٩م (عندما كان المسـؤول المعين هو علي هليل إسـكندر) وبالنسـبة لأعوام ١٦١٠م و١٦١٨م نجـد أن تلـك الممارسـات موصوفـة فـي فرمان السـلطان لعام ١٦٨٤م الصادر لحكام أقاليم تسالونيكي * بيرويا وجينيتا الذي أكد حق

2 ــ الوقـاد : الـذي يقوم بعملية إحراق الفحم في الآلات البخارية وضمان تغذية الآلة به . (المترجم) .

الحاكم حسين في جمع ضريبة الرأس والضرائب الأخرى من الغجر في تلك الأقاليم، وقد وصلت جملة تلك الضرائب مبلغ ٦٥٠ أسيري لكل مسلم و ٧٢٠ أسبري لكل مسيحي وكانت فترة جمع تلك الضرائب محدودة خلال شهر (بين ٩ نوفمبر و٧ ديسمبر) ومن الجدير بالذكر أن نرى التبرير المقدم لجمع هذه الضرائب من الغجر بذلك الأسلوب رغم عدم وجوب النظر إليه ظاهريا يقول:

«إن هذا الجنس من الناس يعيش منفصلاً ويكون محدوداً في أعداده، لكن له كافة الاحترام، ولندع فرداً واحداً - دون عائق أمامه - يجمع تلك الضرائب والرسوم، المخصصة للميزانية العامة المكونة من الضرائب والغرامات الموقعة بسبب الهروب أو ارتكاب جريمة، وفوق كل ذلك لا تسمحوا لأي مسؤولين كبار أو إداريين أو موظفين مدنيين أو ضباط شرطة أو مراسلين أو ممثلي المؤسسات الدينية أو من أملاك السلطان أو ملاك الأرض أو أي شيء وأي أشخاص آخرين بالتدخل في شؤون الغجر، أبقوا الغجر بعيدين عن الأفعال الخاطئة ضد الدولة، ولا توقعوا بهم ظلما أو قهرا بأن تحملوهم أكثر مما يطلب منهم هذا الفرمان السلطاني».

٣-١٣ كيف اكتسب الغجر عيشهم؟

عمل الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية في عديد من المهن، ففي السجل الضريبي لعام ١٥٢٢م- ١٥٢٣م غالبا ما تم تسجيل الغجر كموسيقيين(سازندي) وفي بعض الحالات نجد كل جماعة الغجر الضريبية مسجلة بتمامها كموسيقيين، وعلى سبيل المثال، جماعة كارا

أوجـلان بــن أُرخ من غابة فرانيا، وفي حالات أخـرى، كان زعيم الجماعة موسيقياً مثل بورو بن كيرياك من ميلنيك وديف (أو ديو) ابن إفراد من إيتوس وعازف الكمان هيزير من منطقة إيني شـلهير وآخرين. والانتشار الواسـع لتلك الحرفة بين الغجر تم توكيده فيمـا بعد ببراهين تاريخية، بما فـي ذلك الوصف المتعدد لموسـيقى الغجر الذي سـجله الرحالة من أمثلة كوكليت وهو يصف بلجراد عام ١٦٥٨م ذاكراً:

(في كل مكان يقوم الغجر رجالا ونسـاء بالعزف والغناء بسـرور كبير مسـتخدمين آلات الفيولين والأشـبه بآلات السـيمبالو والطمبورة والتي تشـبه الجيتار لكنها تحتوي على خمسـة أوتار فقط، وقد اسـتمتعنا بتلك التسلية طوال رحلتنا كلها).

كانـت الآلـة الموسـيقية الأكثـر ذكرا فـي المصـادر المختلفـة هي آلات الزورنـاس – نـوع مـن آلة ألبـوا – ثم آلات النقـر (الطبـول) والثلاثي المكون من عازفين اثنين للزورناس وقارع واحد للطبل هو المشـهد الشـائع في البلقان حتى اليوم، لكن هناك آلات أخرى كانت تسـتخدم، وأغلبها آلات التامبوريـن وفي أزمنة أكثر حداثة اسـتُخدمتْ آلات وترية مختلفة، وجنباً بجنب مع هذا هناك أدلة أكثر حول أشكال فرق الموسيقيين الغجر، مثـلا وجود عازفين اثنين للكمـان مع لاعبين اثنين للتامبورين مع مجموعة من الراقصين (وهم في الأسـاس من النسـاء يطلق عليهن غالبا الشـنجي وأحيانـاً النسـاء اليهـود) اللواتي كـن يقمن بتسـلية الموظفـين الأتراك والتسرية عنهم (بالإضافة للرحالة الأجانب) في الحانات أو في منازلهم ويبقى سؤال لا إجابة له بصورة كافية، وهو مسألة وجود الغجر الحدادين

في الإمبراطورية العثمانية، فالغجر في كثير من بقاع العالم معروفون بمهنة الحدادة وكان لهذه المهنة عندهم تقاليد عريقة، وقد حافظوا عليها جيدا في البلقان حتى اليوم حيث نجد رجالا من الغجر مهنتهم المتوارثة هي - بالدقة - الحدادة وأعمال تشكيل الحديد بشكل عام، فإذا ما وضعنا ذلك في اعتبارنا يصبح مثيرا للدهشة حقا عدم شيوع الحدادين من الغجر نسبيا في فترات معينة وعلى سبيل المثال نجد في السجل الذي نقتبس منه كثيراً- عن ضرائب عام ١٥٢٢م - ١٥٢٣م فردا واحدا تم تصنيفه كحداد وأربعة آخرين في أعمال مختلفة تتعلق بالحدادة (وكانت الأسماء المستخدمة لهذه الأعمال هي شيلنجير وتيمورجي وحدّاد) ومما لا شك فيه أنه كان عدد كبير من الحرفيين الذين وجدوا في سنجقية الغجر من الحدادين فعلا لكن أعدادهم كانت محدودة وخدموا بأعمالهم الجيش فقط وليس الأهالي داخل الإمبراطورية ككل، ويمكن وضع عدد متنوع من الفروض مقدما لشرح تلك المناقضة لكنك لا تجد فرضاً واحداً منها يبدو مقْنعاً، وهذا ما يعد أكثر إربـاكا - في قراءة تلك الفترة - خاصة مع وجود دليل أكثر قدما يعود للقرن الخامس عشر.

بشأن الغجر الحدادين وعمال تشكيل الحديد، وأي دليل يتعلق بأولئك الحدادين (مأخوذ من السجلات الضريبية أو المصادر التاريخية الأخرى) يصبح أكثر شمولا - مرة أخرى - من القرن السابع عشر فصاعدا، ففي السجل الضريبي لعامي ١٥٢٢م -١٥٢٣م ووسط الحرف الأخرى للغجر بخلاف الموسيقيين نجد أيضا صناع العلب الصفيح وصناع الذهب وصناع السيوف ومواقد الطهي وصناع حُدوات الخيل والأحذية «وكافة

الإسكافية» وصناع المسامير والجلود والخياطين «الترزية» وناسجي الغزْل والسجاد والصباغين وتجار الحديد وصناع الحلفا، وبائعي الأجبان والجزارين والكبابجية والبستانيين وسائقي البغال والحراس وحراس السجون والخدم، والسعاة، ومربي القرود وحفاري الآبار وآخرين شاملة ضباط الجيش المؤقتين ورجال الانكشارية ورجال الشرطة (سوبا شيز) وأطباء وجراحين وكهنة، ومن الصعب التيقن من المدى الذي تفترض به تلك الحرف وجود حرف تقليدية، وإلى أي مدى تم التمكن من إجادتها حديثا رغم أنه من الواضح أن عددا من تلك الحالات يشير إلى وجود الخبرة المهنية التقليدية لمجتمعات معينة من الغجر.

وهناك مصادر مهمة وهي الملاحظات التي دونتها الرحالة التى جاء ذكرها في الأعلى «إيفليا سيليبي» والتي حظيت بفرصة استخدام قائمة بيان لنقابات الحرفيين في استانبول، وهي قائمة أعدت بناءً على أوامر السلطان مراد الرابع (١٦٢٣- ١٦٤٠ م) وقت ما كان الغجر يعيشون في حي بالاطا، بمجرد استقرارهم هناك على يد محمد الثاني وقت غزو المدينة، وقد احتوت القائمة على سبع وخمسين نقابة، وجاء أول ذكر للغجر في النقابة العاشرة الخاصة بمربي الدببة والتي كانت تشتمل على ما جملته سبعين رجلا، وفي النقابة الخامسة عشرة نجد تجار الجياد (جامبار) ٣٠٠ رجل، وكما كتبتْ إيفليا سيليبي:

(تجار الجياد هؤلاء أثرياء يملك كل واحد منهم إسطبلات للخيول تقدر جيادها من ٤٠ إلى ٥٠ جواداً عربياً، وأغلبهم من الغجر رغم وجود آخرين ينتمون لأجناس أخرى).

واختصت النقابة الثالثة والأربعين بالموسيقيين وتتكون من ثلاثمائة فرد معظمهم - كذلك - من الغجر، أما النقابة الخامسة والأربعين والتي تضم الممثلين وفناني التمثيل الصامت والراقصات، ولتلك النقابة اثنا عشر قسما فرعيا أولهم يضم ٣٠٠٠ شخص يعيشون في حي بالاطا وأغلبهم من الغجر، والقسم الفرعي الثاني شمل ٣٠٠ صبي راقص يعيشون - أيضا - في بالاطا، ووفقا لما ذكرته إيفليا سيليبي من ملاحظات - ضمن الأعمال الوضيعة - نجد في الأقسام العشرة الفرعية الأخرى لتلك النقابة هناك بعض الغجر لكنهم قلة - وكان موجودا بينهم بصورة دائمة اليونانيون والأرمينيون واليهود، وقد جاء ذكر الغجر آخر مرة في القائمة الشاملة لنقابة بائعي البوظة، وهو شراب مُختمر يصنع من نبات الذرة.

٣-١٤ الصراع مع القانون

شملت حرف الغجر بعضا مما يعد غير قانوني أمام الإدارة العثمانية، ففي عديد من الحالات خاصة عندما يقيمون في المدن، كان الغجر يكسبون عيشهم بامتهان «أعمال قذرة» بشكل أساسي، مثل الأعمال المتنوعة التي لا تحتاج لمهارات أو التسول وأحيانا يحترفون أيضا عملا يخرق قوانين الإمبراطورية وهناك حالات اشتبك فيها الغجر في صراعات متعددة مع السكان المحليين تم حلها بواسطة النظام القانوني العثماني وينص تقرير كتب في شأن إجراءات قانونية بمنطقة صوفيا من يونيو ١٥٥٠م على الآتي:

«استدعى الراهب نيكوديم شخصاً غجرياً اسمه درويش بن عبد الله أمام

محكمة الشريعة الإسلامية وقاضاه في حضوره قائلاً:

«إن المدعو درويش باعني حصاناً أسود مقابل ١٥٨ أكشه، وقيل إن الحصان كان بصحة جيدة وسليماً (لكن في الحقيقة) كانت عينه اليمنى قد ذهب إبصارها ولا يمكنه الرؤية بها، إذن يوجد به عيبٌ وأريد إعادته إليه و.................. وبعد شرح الدعوى التي عرضت بهذه الصورة انتقلت القضية إلى المدعو درويش الذي قام بالرد:

«لقد عاين المدعى المذكور عيب الحصان الذي يتحدث عنه وقبله بعيبه..».

وفي هذا الموقف كان على درويش أن يقدم دليلاً على صدقه في إفادته، وحيث إنه كان غير قادر على تقديم دليل على كلامه، طلب من الراهب المذكور أن يقسم أنه «لم يقبل الحصان موضوع الدعوى على عيبه»، وقام الراهب بأداء القسم ثم حكمتْ المحكمة بإعادة الحصان إلى البائع المذكور.

٣-١٥ نساء ساقطات

ومما يستحق الذكر، وجود حرفة نادرة إلى حد ما، وهي مهنة تمارسها نساء الغجر في الإمبراطورية العثمانية، ففي القانون المذكور آنفاً والمتعلق بالغجر في مقاطعة روميليا، أشار إلى أن «النساء الغجر في مقاطعات أستانبول وإيدراين وفيليبي وصوفيا» اللواتي يشتغلن في مهن غير قانونية يجب أن يدفعن ١٠٠ أكشه جملة في كل شهر».

ويشير هذا التعبير الكنائي إلى العاهرات «النساء الساقطات» كما

أنـه واضح كذلك في الضريبـة المرتفعة بصورة غيـر طبيعية التي عليهن دفعها، وتصنيف الغرامة كضريبة هي صياغة تسـتخدم -حتى اليوم- في بلاد البلقان كوسيلة لتقنين الأعمال غير القانونية.

ويتكرر تأكيد وجود تلك الجماعات من النساء الداعرات من الغجر في مصادر تاريخية أخرى تشـمل مذكرات الرحالة الأوروبيين، الذين تجولوا عبر الإمبراطورية لأسـباب متعددة، ونذكر مثالاً من كتابات الكابتن شاد (١٧٤٠م - ١٧٤١):

«في هاسالار بمقاطعة رازجراد قابلنا أول امرأتين داعرتين في الإمبراطورية العثمانيـة، كانتـا امرأتين لعوبتين مـن قبيلة تنتمي لأكثر الأمم بؤسـاً ممن يدعونهم في فرنسا «مصريين»؟!...

كانتـا تنتظران.... فـي أردية رائعة البهاء وأكثر سـمرة مـن أي امرأة مسـلمة ممن تعيـش في تلك البقـاع، تغطيان رأسـيهما بقماش حريري، وكانت كل ملابسهما أيضاً من الحرير...»،

● الرحالة الأوربيون:

تعد ملاحظات الرحالة الأوروبيين على حياة الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية شـديدة القيمة كمصـدر للمؤرخين، وبالطبع لم تكن مثل تلك الملاحظـات التي يدونها غرباء دقيقة دائماً أو متوافقة مع الوضع الحقيقي لشـؤون الغجر، ورغم هذا فهي تكشـف جوانب مثيرة في حياتهم، مما لا تسـجله المصادر المحليـة دائماً بل الأجانب هم مـن يلاحظونها فقط، وقد ذكـرت كتابات الإنجليـزي هنري بلاونـت في النصـف الأول من القرن السابع عشر الملاحظات الآتية:

«لست واحداً ممن يعتبر هؤلاء الناس أشراراً، لكنهم يتميزون عن الآخرين بتفاهتهم وكسلهم، ولكونهم نفاية المجتمع لا محصلة لأجيال متتابعة، لأنهم يخوضون في الغثاء ويتعرضون دوماً للشمس، فهم أكثر سمرة من الآخرين، وهم موجودون في كل مدينة تركية، لكنهم لا يقومون بالسرقة مثل الغجر الموجودين لدينا لأنهم يخافون العقوبات الصارمة وهم يتنبؤون بمستقبلك بمثل تلك الطريقة الخادعة التي يقوم بها الغجر عندنا ويقنعون - أيضاً - بالقليل، وهم يُسْتخدمون - غالباً - في أداء الأعمال الحقيرة مثل كناسي الشوارع والحدادين والإسكافيين وصناع العلب الصفيح وما أشبه، وقليل منهم من تم اختتانه ولا أحد يقوم بتعميدهم، ويرتدون الخِلَقَ البالية بسعادة، لكنهم لا يندهشون (لأحوالهم)، ويعيشون في أكواخ ومنازل صغيرة في ضواحي المدن محاطين بالاحتقار».

كما كتب إدوارد براون - وهو إنجليزي آخر - سافر عبر الإمبراطورية العثمانية:

«أقوياء وشجعان، وكان بعضهم لصوصاً ويوجد منهم الكثير في المجر والصرب وبلغاريا ومقدونيا، وأنا رأيت كثيراً منهم - أيضاً - في لاريسا والمناطق الأخرى في ثيسالي، وهم أكثر انتشاراً في المدن، حيث يدبرون معيشتهم باحتراف الأعمال الحقيرة والاتجار بالأعمال الحرفية اليدوية، وكثير منهم يصبغون أياديهم وأرجلهم بالحناء الحمراء، ويعدون ذلك تخفيفاً لتلك الأعضاء من لسعة البرد، وبعضهم يصبغ أطراف شعره، ورغم انتشارهم مدى بعيداً إلا أننا نعتقد أنهم أتوا أصلاً من فالاشيا ومناطقها المجاورة ونظن أن أغلبهم من جواسيس الترك».

٣-١٦ الحالة المدنية للغجر

كان السؤال الذي يثور غالباً بالنسبة للغجر، هو ما هي الحالة المدنية التي كانوا عليها في ظل الإمبراطورية العثمانية ؟ ولكن الإجابة عن ذلك السؤال لا تأتي بسهولة. فالمسألة معقدة إذ يحتل الغجر حقيقة مكانة غريبة في البناء الاجتماعي والإداري الشامل للإمبراطورية، فالسكان -كما هو مذكور آنفاً - انقسموا إلى فئتين رئيسيتين هما المسلمون والرعايا، لكن الغجر لم يصنفوا في أي من هاتين الفئتين، إذ تم تمييزهم من خلال انتمائهم العرقي، كحالة نادرة في القوانين داخل الإمبراطورية العثمانية، برغم أن النظرة إلى اليهود كانت تشبه هذا إلى حد ما، وهذه المعاملة كانت نتيجة لممارستهم الدينية -على سبيل الاحتمال- وكما أوضحت إيفليا سيليبي «أنهم يحتفلون بعيد القيامة مع المسيحيين» ومع المسلمين يحتفلون بعيد الأضحى ومع اليهود بعيد الفصح، ولم تكن هناك فروق كبيرة بين الغجر المسلمين والغجر المسيحيين، سواءً بهدف فرض الضرائب أو لحالاتهم الاجتماعية ككل، وبشكل عام كانوا أقرب لمعاملة الرعايا المحليين في السكان مع بعض امتيازات ضئيلة للغجر المسلمين، ومنافع أكثر - لها اعتبارها - لمن يعملون في خدمة الجيش. وعلى أي حال يبدو أن هذا التوجه نحو الغجر قد تأصل داخل الشعور العام في ظل الإمبراطورية العثمانية، وتكشف العديد من المصادر الاحتقار الواضح الذي يشعر به السكان -سواء العثمانيون أو السكان المحليون- نحو الغجر، ويعتبرونهم أقل مرتبة ولا يستحقون أدنى اهتمام، وهو نموذج اجتماعي طال صموده عاش في أرض البلقان حتى اليوم.

ورغم تلك الاتجاهات الاجتماعية السائدة وربما بفضلها - حظي الغجر

بفرصة كبرى في الإمبراطورية العثمانية كي يحفظوا العديد من خصائص شخصيتهم الثقافية العرقية، ومنها على سبيل المثال طريقة حياتهم البدوية بالإضافة إلى حرف تقليدية معينة، وكما تبقى - في النهاية - جماعة عرقية مغلقة، وككل فإن الحالة المدنية للغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية تعد أفضل كثيراً من حالة أبناء عمومتهم في أوروبا الغربية حيث تعرضوا لاضطهاد جماعي قاس خلال الفترة التاريخية نفسها (العصور الوسطى) وربما يفسر ذلك السبب في وجود أعداد كبيرة من الغجر في البلقان عنه في أوروبا الغربية في الوقت الحاضر.

٣-١٧ التشريع الرسمي والواقع اليومي

يبدو أن المشكلات التي واجهها رعايا الإمبراطورية العثمانية نشأت بصورة متكررة - من الأسلوب الذي تُطبق به القوانين وليس في التشريع ذاته، وهو وضع تغيّر بصعوبة في البلقان، وهذا التحليل يُعد صالحاً تماماً بالنسبة للغجر وهناك دلائل تاريخية أكثر تُبرهن على ذلك، ففي البوسنة عام ١٦٩٣م تحول سليم بن عثمان الغجري - وهو خبّاز - إلى محكمة سيراييفو مع طلب إعفائه من سداد ضريبة الرأس (التي تُفرض على غير المسلمين) حيث قال في طلبه:

«أنا ابن رجل مسلم وأنا مسلم وأعيش في حي المسلمين،وبالاشتراك مع المقيمين معي ندفع الرسوم حالما أتمكن من تدبيرها، وفوق ذلك فأنا أصلي مع المسلمين خمس مرات في اليوم وأرسل أطفالي إلى مدرسة دينية لتعلم القرآن مع باقي الأطفال، وأعمل ملتزماً بتعليمات حرفة الخبازة......».

ومع طلبه أرفق وثيقة زواجه وخطاباً دورياً من السلطان يتعلق بدفع

الضرائب التي يؤديها المسلمون، ووفقاً للقرار النهائي للمحكمة تم إعفاء المدعي من سداد ضريبة الرأس، رغم أنه كان واضحاً أن هناك عشرات من الحالات الأخرى لم يتمكن الغجر من فرصة التحويل إلى المحاكم الرسمية.

ولم تأت إشارة في الوثائق الرسمية للعثمانيين بشكل محدد أن على الغجر أن يدفعوا الضريبة المسماة «ضريبة الدم» وتتم بأخذ الصبية الصغار من عائلاتهم حتى تقوم الدولة بتربيتهم ليكونوا جنوداً في الانكشارية وهي وحدات النخبة في الجيش، التي تخضع مباشرة للسلطان.

رغم ذلك، توحي الأدلة التاريخية في بعض الحالات أن الرعايا من سكان البلقان قد تحايلوا بوسائل عديدة لإرسال أبناء الغجر للسلطات العثمانية بدلاً من أبنائهم، وبمعاينة هذا الأمر، يشير عدد من تعليمات السلطان أن أولئك الذين يحاولون إخفاء أبنائهم ويستبدلون بذلك أبناء الغجر سوف يعاقبون بالإعدام. وقد أدى ذلك إلى ظهور أسطورة غجرية في السنوات الحالية تقول:

(اعتاد الأتراك أن يأخذوا ضريبة الدم من كل أسرة، بوضع علامة حمراء على أبواب البيوت التي أخذوا منها طفلاً بالفعل، وفي أحد هذه البيوتات كان للعائلة طفل واحد فقط ولكي يحفظوه من تلك النهاية، اتبع أفراد الأسرة نصيحة بانجو فاسيل «باسل الأعرج» فذبحوا ديكا ونثروا دماءه على الباب، وعندما رأى الأتراك العلامة تخطوا ذلك البيت، ومن يومها يحتفل الغجر بيوم القديس باسل «فاسيليوفدين» وذلك بذبح ديك ويضعون علامة من دمائه على جباه الأطفال).

وبرغم أن الغجر كانوا قانونا غير عبيد إلا أن هناك عدداً من الحالات

التــي بيع فيها الغجر كعبيد ففي عام ١٥٣٣ م ذكر هانز ديرنزشـوام أنه رأى مجموعة من الغجر ترسف في الأغلال داخل سوق العبيد وقد جُلبوا إلـى المكان لعدم سـداد ضريبة الـرأس. كما وجد برهان آخـر في تقارير رحالة أوروبيين آخرين وفي الوثائق الرسمية، منها مثلا، أمر حكومي صدر عام ١٥٦٠م للحكام المحليين في إقليم الدانوب يأمرهـم أن يلتزموا بشـدة بقاعدة عدم بيع الغجر - الذين قاموا بسداد ضريبتهم للأمير - في سوق النخاسـة، ورغم أن العبودية قد انتهت رسميا في الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٣٩ م خلال فترة الإصلاح السياسـي أو ما يسـمى «بالتنظيمات» إلا أنها قد تلاشـت تماما مع ذلك الوقت وأصبحت محدودة الأثر بشـكل عام، بالإضافة إلى أن وضع العبيد عندئذ كان معقدا ومتنوعا ومختلفا - غالبا - عن القبول العام لاستخدام ذلك المصطلح بواسـطة القوم، فمثلا يُعد الوزراء «عبيداً للسـلطان» وفقـا للقانون، لذا فعبودية الغجر لم تكن عاملا محددا لحالتهم المدنية ولا وضعهم الاجتماعي داخل الإمبراطورية.

٣-١٨ هجرة الغجر داخل منطقة البلقان

لابـد من النظـر إلى وضع الغجر تحت الحكم العثمانـي في إطار مقارن، وأحـد تلك المقارنات المثيرة يمكن إجراؤها بين مولدافيا وفالاشـيا، وهما مـن الولايات الإقطاعية للإمبراطوريـة العثمانية، والتي كان يهرب منها العبيد من الغجر باحثين عن ملجأ داخل حدود الإمبراطورية.

فمثلاً في السـجل السابق لعام ١٥٢٢-١٥٢٣ م في مقاطعتي شومن وبروفاديا، نجـد جماعتين من الغجر الوافدين حديثا من مقاطعة فالاشـيا

قد تم تسجيلهما، جماعة كولاجوز المكونة من ثلاث عائلات مسيحية مقيمة، والرُحل تحت قيادة توتاشي بن سلاف والمكونة من ثلاث عشرة أسرة مسيحية. وتمت تلك العمليات من الهجرة الداخلية على مدى واسع عند نهاية القرن السابع عشر حينما انتهزت جماعات كبيرة من الغجر فرصة نشوب الحروب بين النمسا والإمبراطورية العثمانية والاحتلال النمساوي المؤقت (١٦٩٠ - ١٧١٨م) لأجزاء من شمال شرق الصرب وشمال غرب بلغاريا مع شرق بانات كي ينفذوا إلى قلب الإمبراطورية العثمانية ويستقروا هناك، وقد أطلق بعض المؤرخين على تلك الحركة «الهجرة الغجرية الثانية نحو البلقان»، وينسب غجر هذه الهجرة إلى الجماعة اللغوية التي يسميها اللغويون «لهجات الفلاة القديمة» (جوربيت فلاهوريا والمجموعات الأخرى) الذين استقروا بسرعة عبر أراضي شبه جزيرة البلقان ممتدين نحو الشرق بقدر ما تصل إليه أراضي آسيا الصغرى.

الفصل الرابع

انحدار الإمبراطورية العثمانية وغروبها

بعد وصول الإمبراطورية العثمانية لذروة قوتها، دخلت عهدا طويلا من السكون والخمود حتى بداية القرن الثامن عشر ثم بدأ الانحدار التدريجي، انحدارٌ طويلٌ مظلم مملوءٌ بالمشكلات.

٤-١ أزمة الإمبراطورية وعذابها الطويل

منذ عام ١٨٠٠ م فصاعدا عاشت الإمبراطورية أزمة مستديمة، وقد أثر ذلك في الظروف الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة لتعقد الجهاز الإداري، كل ذلك كان مصحوبا بسلسلة طويلة من الحروب الفاشلة - التي شنتها أساسا ضد النمسا ثم لاحقا مع روسيا - وفقدان جزء عظيم من أرضها- خسرت الإمبراطورية العثمانية حربين متلاحقتين ضد روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكان عليها أن تترك أراضيها على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود والولاية المغولية كريمين خانات (منطقة القرم) وحاول السلطان سليم الثالث إصلاح الهيكل الحكومي، وإداراته والاقتصاد لكن أدى ذلك إلى تعميق المأساة والدخول في عهد طويل من الاضطراب الداخلي. ودخل الحكام المحليون وحكام الأقاليم في حروب مع بعضهم بعضاً -إذ أصبحوا شبه مستقلين حينذاك- بالإضافة - إلى حروبهم ضد الحكومة المركزية. وقد اجتاحت شبه جزيرة البلقان العصابات المسلحة المدعوة «كورجاليس ودعاليز» عدة أحقاب وأغلبهم من الجنود السابقين في الجيش العثماني الذين انقسموا واندفعوا في عمليات نهب جماعي لعامة الناس، وقد جندت حركة المتمردين -(هايدوتر) عددا ضخما من الأهالي المحليين لمقاومة العصابات المسلحة تلك

وكذلـك الإدارة العثمانية، وقد وصف مؤخرا البلقان تلك الفصائل المسـلحة المتمـردة - غالبـا- كإرهاصـات وبشـائر لحركـة التحرير الوطنـي، رغم أن أنشطتهم - في الحقيقة - كانت أشبه كثيرا بأعمال أعدائهم.

وقد مدت تلك الأزمة نضال التحرير الوطني لشعب البلقان بحافز قوي، فبعد انتفاضات عديدة وحربين تركيتين - روسيتين (١٨٠٦- ١٨١٢ / ١٨٢١ - ١٨٠٩ م) بدأت الولايات المستقلة تظهر للوجود في منطقة البلقان في أراضٍ كانـت من قبل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فالصرب ظهرت عام ١٨١٢ م بعد معاهدة السـلام ببوخارسـت، واسـتعادت اليونان حكمها عام ١٨٢٩ م عقـب معاهدة سـلام إيدراين في حـين حصلت الولايات المحليـة لمونتينجرو ومولدافيا وفالاشيا على الاسـتقلال الكامل تدريجيا، وقد شكلت الأخيرتين دولة رومانيا.

وقد ارتبطت محاولات الإصلاح العام في الإمبراطورية خلال القرن التاسـع عشـر - وهو ما يسـمى بعصر الإصلاح - «أو التنظيمات» باسـم السـلطان محمـود الثانـي بصـورة أساسـية (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) وقد تحـول كل ذلك إلـى فشـل مطلق ذريـع. لقد حـاول إزالة النظـام الاقتصادي القديم المؤسـس على الروح العسـكرية مع إلغاء فرق الانكشـارية وقدم للدولة جيشـاً نظامياً مصحوبـاً بإصلاح تقسـيمات أراضي الدولة وإعادة تنظيـم الهيكل الضريبي الإداري كلـه، وقد ضمن توقيع الاتفاقية التي سُـجلتْ عام ١٨٣٩ م المعروفة باسـم جل- هان هاتيسيريف تطبيق المساواة الكاملة في الحقوق المدنية لكل رعايـا الإمبراطوريـة المتداعية، ولم يـؤد ذلك كله إلى أي نتائـج عملية لكنه زاد الأزمـات عمقـاً، وقد ظهـر أن انتصار تركيا بمسـاعدة بريطانيا (العظمى

وقتها) وفرنسا على روسيا أثناء حرب القرم١٨٥٣- ١٨٥٦م كلفها ثمناً باهظاً فاق التوقع، إذ انهالت بضائع أوروبا الغربية ورؤوس أموالها علـى أسـواق الإمبراطوريـة، وزادت الديون الأجنبيـة الهائلة من الأزمة الاقتصاديـة إلـى أن تفككت الإمبراطورية عـام ١٨٧٥ ولم تتمكن من سـداد حقـوق دائنيها في غـرب أوروبـا، وازداد نضال شـعب البلقان مـن أجل التحـرر الوطني قسـوة فظهرت دولـة مسـتقلة للبلغار عقب سلسـلة مـن الانتفاضات،وبعد الحروب الروسـية التركيـة طوال عامي ١٨٧٧ -١٨٧٨ م وقـد انقسـمت أساسـا إلى الولاية المحليـة «بلغاريا» ومقاطعة شـرق روميليا التي ظلت خاضعة للإمبراطورية العثمانية حتى عـام ١٨٨٥ م حينمـا تم توحيـد الشـطرين، في الوقت الـذي حصلت فيـه الولايات المحلية في مولدافيا وفالاشـيا بالإضافة إلـى الإمبراطورية النمساوية المجرية واليونان ومونتينجرو والصرب على مساحات هائلة من الأراضي العثمانية.

تواصلت سـكرات الموت انتشـاراً في جسـد الإمبراطورية العثمانية، وحاولـت ثـورة الأتراك الشـباب (حركـة تركيا الفتاة) عـام ١٩٠٨م إحيـاء مجد الإمبراطورية والحفاظ على عظمتهـا لكنها ذهبت هباء، إذ عانت الإمبراطورية هزيمتها النهائية أثناء حروب البلقان عام ١٩١٢ - ١٩١٣ والتـي كان من نتائجها قيام كل من اليونـان وبلغاريا والصرب ومونتينجرو بتقسـيم أراضـي البلقـان الإمبراطورية فيمـا بينهم كلها تقريبا باستثناء العاصمة في استانبول ومنطقة ثراس الشرقية.

٤-٢ مصادر تاريخية عن الغجر

نتيجـة لتلـك الأحداث أخذت قوة الدولة – وصيانة سـجلاتها (مثل سـجلات الضرائب – والقضاء) في الانخفـاض تدريجياً وأصبح توثيق حياة الغجر في الإمبراطورية أكثر تشـتتا وأقل صدقا ولحسن الحظ كانت هناك –في الوقت نفسـه– زيادة في كتابات شـهود العيان دوّنها مؤلفون أجانب يسـافرون لأسـباب متعددة عبـر الإمبراطوريـة العثمانية وبدأت الدراسـات العلميـة عـن حياة الغجـر كذلك، وتلـك المصـادر لابد وأن تكون ذات شـأن وغالبا ما تكشـف مظاهر مثيرة من حياة الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية.

٤-٣ أدلة جوهان كميبلين

يسـلط نصّ مثيـر من الأدلة الضـوء على حياة الغجـر واتجاهات الناس نحوهم، وهي وصف للغجر في منطقة نيشـي من يوميات السفر للرحالة جوهان كيمبلين والتي تعود إلى عام ١٧٤٠ م:

«........ يوجد حوالي ٢٠٠٠ عائلة غجرية تعيش في منازل مصنوعة من العصي المجدولة معا، وقد سـكنوا تلـك الأراضي منذ زمن طويل، لذا فالتجول (لم يعد) مظهرا من مظاهر حياتهم كما هو بالنسـبة لمعيشـة الغجـر عندنـا «المصريين»!! فالنسـوة يرعين أسـرهن ويؤديـن الأعمال المنزليـة، بينما يسـلم الرجال أنفسـهم لأعمال وضيعة متعـددة، ولكن العديد منهم يعملون بحرف مهنية أخرى، وقد تم اسـتبعادهم عن العمل بالزراعـة، وعقيدتهم إما أن يكونوا مسـلمين أو مسـيحيين لكن أغلبهم

بــلا عقيدة . . ولــو قرر واحد منهم الاعتراف لــدى الكاهن ، لا يقوم بأداء أي طقــوس ولا يلتزمــون بــأي تعليمات ، ولكل منهم زوجــة واحدة فقط يتزوجونها بعد تصريح شفهي يصدره زعيمهم ، وتعد ضريبة الرأس التي يدعونهــا هــاراش - ويجمعها الأتراك منهم - عالية جــدا . . . . وفي الحقيقــة لا نجد بينهم أحدا من النبلاء ولا الزعماء البارزين ولا يوجد نظام أو قانــون بل الجميــع يحتقرونهم ويكرهونهم ، فهــم المتهمون المعتادون عقب كل سرقة أو نهب .

وملابس الرجال تشــبه ملابس البلغاريين ، وترتدي النساء عقودا حول رقابهن مــع «دلايات»[1] مزينة بقطع النقود المعدنية التي تصل من الأذن لــلأذن الأخرى ، ويرتدي الرجال أحذية جلديــة ومعطفا يدعونه «أنتريا» بالإضافة إلى قفطان جلدي أشــبه بالنمــوذج اليوناني ، وصدورهم جميعا عارية تماما ، ويعقصون شــعورهم في دائرة بشــريط يضيفون إليه وشاحاً قديماً . . . . » .

وللوصــول إلى بدايات أصول هذه القبائل يمكننا الرجوع بالتاريخ حتى زمــن نيكوفوروس حوالي عام ٨١١م (وتبع ذلك وصفٌ مســبقٌ لأحداث سبق ذكرها تتعلق باستقرار الجماعات المدعوة أتسنجاني مبكراً في إقليم تــراس) ومن هناك - على ما يبدو - تم اشــتقاق اســم الغجر (زيجيونر)

---

1 - غطاء لنصف الوجه أشبه « بالحبرة » أو «اليشمك » مزين بقطع معدنية أو أصداف تتدلى لتغطي الجزء الأسفل من وجه المرأة. (المترجم) .

بصـورة أو بأخرى، ويبدو أيضا أن عددا كبيـرا من المهجرين أو المصريين المُبعديـن قـد اختلطـوا بهـم، وعلى هـذا يمكن القـول إن لفظـي الغجر (زيجيونر) ومصريين كانا مستخدمين بصورة مترادفة لهؤلاء القوم.

وهـم فخـورون جدا بذلـك الإرث المصـري (إيجيبشـيان)، وعلى أي حـال لا يوجد في تقاليدهم ولا لغتهم ما يبرز كمظهر للمصريين أو حتى للكلدانيين لولا انتشار بعض مظاهر العرافة والخرافة، إذ إن لغتهم شديدة الغرابة، في حين تأثرت لهجاتهم وطرق نطقهم باللغة العربية.

٤-٤ معلومات سكانية

نجـد المعلومـات السـكانية التي تتعلـق بالغجر فـي ظـل الإمبراطورية العثمانية تعطي ملامح شـديدة العمومية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشـر، لأن انهيـار النظـام الإداري أدى إلـى غيـاب السـجلات المنظمة للضرائـب لسـكان الإمبراطورية، حتى أن آخر دليل شـامل وصلنا يعود إلـى عـام ١٦٩٥ م في الأناضـول وروميليا وفيه نجـد ٤٥,٠٠٠ غجري مسـجلين بالرجال فقـط الذين يدفعون الضرائـب، كان منهم ١٠,٠٠٠ مسـلم يدفعون ٥ قروش «جروسات» ضريبة رأس لكل فرد، في حين كان الباقي مسيحيين يدفعون ٦ قروش لكل فرد.....

وفي عام ١٨٦٦ م سـجلت وثائق وزارة المالية الرسـمية أن عدد سكان الإمبراطورية كان ٤٢ مليون نسمة، عاش ١٨ مليوناً منهم في أوروبا بما فيها ولايات: مونتينجرو والصرب ومولدافيا وفالاشيا. وكل واحدة منها تتكون من ١,٣٠٠,٠٠٠ من المغول والشراكسة والتسنتسار والأرمينيين

واليهود والغجر.

ويتبنى الكُتّابُ المعاصرون أساليب مختلفة في حساب أعداد الغجر في الإمبراطورية العثمانية وأدى ذلك إلى اختلاف واسع في تحديد تعدادهم، لذا تنوعت تقديرات أعداد الغجر المنشورة عن الجزء الأوروبي في الدولة التركية من ٥٠,٠٠٠ إلى ما يصل حتى ٦٢٠,٠٠٠، ووفقا لما ذكره يوبيسيني كان هناك ٢١٤,٠٠٠ غجرياً عامي ١٨٥٣-١٨٥٤م، أما الغجر في آسيا الصغرى فنادراً ما كانوا يُذكرون، في حين كانت المعلومات عن آسيا وأفريقيا ناقصة تماما، وعلى أي حالٍ ليس لدينا أي مبرر للشك في مقولة آمي بويه حينما كتب في القرن التاسع عشر أنه (لا يوجد بلد في أوروبا به أتسنجاني «الغجر» أكثر من الإمبراطورية العثمانية).

وتتوافر معلومات أكثر دقة عن وحدات إدارية أو قروية أو إقليمية معينة، ففي عام ١٨٧٦ م على سبيل المثال تم تسجيل ما جملته ١٣,٨٩٢ من السكان الخاضعين للضريبة في إقليم بلوفديف للرجال البالغين فقط بلغ عدد الغجر المسلمين منهم ١٢,٤٧١ نسمة والغجر المسيحيين ١,٤٢١ نسمة وبتقسيم تلك الأعداد على المقاطعات نجد الآتي: في بلوفديف ذاتها ٥,٤٧٤ من المسلمين و٤٩٥ من المسيحيين وفي تاتار بازار ٢,١٢٠ مسلما و٤٩٥ مسيحيا وفي هاسكوفو ١,٥٤٨ مسلما و١٤٥ مسيحيا وفي ستارا زاجورا ٩٨٩ مسلما و٧٠ مسيحيا وفي كازانلوك ١,٣٨٤ مسلما و٢٤ مسيحيا وفي تشيرباني ٤٢٠ مسلما و٨٨ مسيحيا وفي آهي سيليبي * ٣٧٧ مسلما وفي سلطان إيري ١٥٩ مسلماً.

وتوجد بعض الأرقام المفيدة – كذلك – في كتاب der Balkan Donau

Bulgarien und . الــذي دونه الجغرافي النمســاوي فيليكس كانيتز الذي ارتحل عبر الأراضي البلغارية خلال ســتينيات وســبعينيات القرن التاســع عشر، فوفقا لكتابه كان يوجد في كازانلوك ٥٠ عائلة غجرية وفي لوفيتش ١٥٠ عائلة من الغجر الأتراك و٣٠٠ من المسيحيين وفي سفيشتوف ١٦٠ عائلــة غجرية وفــي فيدين ١٠٠ عائلــة غجرية وفــي روس ٥٠٠ غجري وفي سيليســترا ٥٨ أســرة غجرية وفي دوبريــش ٣٠ عائلة غجرية وفي كارنوبات ٤٠ عائلة غجرية وفي كالوفر ٤٠ أســرة غجرية وفي أورهانتي ٢٠ عائلة غجرية وفي صوفيا ٩٠٠ غجري وفي فراتســا ٢٠ عائلة غجرية وفي بيركوفيتا ٣١ عائلة غجرية وفي كويناري ٦٠- وأكثر الإحصائيات دقة وشــمولاً لديموجرافية السكان الغجر خلال تلك الفترة هي تلك التي وردت في «تاريخ البلغار» لمؤلفه كونســتانتين جيريك حيث يذكر أن في مقاطعــة الدانوب كان يوجد من الغجر المســيحيين ٧٥٥٩ و٢٤,٨٣٥ من المســلمين (الرجــال البالغين فقط هم مــن تم إحصاؤهم) في حين كان يوجد في مقاطعة إيدراين ٤,٦٢٦ مسيحيا و٢٢,٧٠٩ من المسلمين.

لــم يكن انتشــار الغجــر موزعا بصــورة متســاوية عبــر كل الأقاليم أو الوحــدات الإداريــة، إذ لاحظ جميع الكُتاب أن الغجــر كانوا كثيرين في المناطق المركزية لشــبه جزيرة البلقــان (خاصة في ثراس) وفي محليات مولدافيا وفالاشيا ويتضح من المعلومات المستقاة آنفاً وفي الفصل السابق، أنه كانت هناك نية بالنسبة للغجر لتغيير معتقداتهم، فالغجر المسيحيون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر سادوا المنطقة، ولكن مع قدوم القرن التاســع عشر تحول التوازن العددي بشكل درامي وأصبح المسلمون

هم الأغلبية وكان معدل نسبة المسلمين للمسيحيين قد تم حسابه بصورٍ مختلفة هو ١ :٣ أو ١ : ٤ وكان من الصعب معرفة نسبة محددة، إذ كان الغجر يُغيّرون - غالبا - دينهم لكن كان هناك ميل مستمر عبر القرون لتبني عقيدة الإسلام.

ولم يتم حسم حساب معدل الغجر المقيمين إلى نسبة الغجر الرُحّل إذ للمرة الثانية تختلف المعطيات للتمييز بين الحالتين «الإقامة - الترحل» ولم تستقر أبدا بوضوح، وذلك يفسر أسباب تناقض المؤلفين مع بعضهم بعضاً، فالعالم الفرنسي آمي بوييه - مثلا - يذكر أن الغجر المقيمين كانوا أكثر عددا من الرُحّل، بينما كانت النسبة في كتاب الدكتور أليكساندر باسباتي وهو بروفيسور يوناني في استانبول ومؤلف أول كتاب عن الغجر في الدولة العثمانية على العكس من ذلك.

وآخر فترة لدينا عنها معلومات مقبولة ويُعتد بها عن الغجر في ظل العثمانيين جاءت من إقليم مقدونيا عند بداية القرن العشرين، وفقا لكتابات فاسيل كونتشوف، كان هناك ٥٤,٥٥٧ من الغجر، منهم ٣٥,٠٥٧ من المسلمين و ١٩,٥٠٠ من المسيحيين، لكن المنطقة التي غطاها ذلك الحصر لم تشمل الحدود الإدارية المحددة في ذلك الوقت، فمقاطعة سكوبجي العثمانية -على سبيل المثال- شملت جزءا كبيرا من كوسوفو لكن كوسوفو لم يضمها كونتشوف لأرقامه.

٤-٥ الغجر وعصر الإصلاح

أثـرت عمليـات الإصـلاح - أو علـى الأقـل محـاولات ذلـك - فـي مجتمـع الغجر، وبينما كانت تتم التغيـرات المفترضة، جرت محاولات لتنظيـم الحالة المدنيـة للغجر لتتقارب مع حـالات الرعايا الآخرين داخل الإمبراطوريـة، ورغـم الرغبة في الإصـلاح العام للإمبراطوريـة العثمانية - وانتهـاء تلـك الجهود والأفعال إلى نتائج غيـر مؤثرة، ظلت الظروف المحيطة بالغجر دون تغير.

قامـت السـلطات العثمانية باسـتخدام معايير إدارية لدفـع الرُحّل إلى الاسـتقرار بصورة دائمـة، وفي معظم هـذه الحالات جـاءت النتائج غير مؤثرة، ففي عام ١٨٠٥ م -على سـبيل المثال- أمر حاكم البوسنة القادة المحليين بإيقاف الغجر الرحل عن ممارسة أساليب التجول التي يعيشونها.. ولكن وفقاً لتقارير الحكام المحليين؛ ورغم أن الغجر كانوا قد وعدوا بتنفيذ ذلك؛ إلا أن وضعهم لم يتغير كثيراً،ولذا فقد أصدر السـلطان فرماناً عام ١٨٤٥م بـأن الغجـر الموجودين في منطقتـي روميليـا والأناضول الذين يتجولون باسـتمرار بغرض النهب والسـرقة وارتكاب الأعمال الشريرة يجب أن يُسـمح لهم بالاستقرار حيثما يشـاءون طالما وافقت السلطات المحلية، علاوة على أنهم أحرارٌ في التنقل بين القرى لشـغل أنفسهم بأمور حرفتهـم مثل أعمال الحـدادة وصناعة العُلب الصفيـح وغيرها من بداية فصل الربيع حتى نهاية الخريف هذا إذا لم يتسـببوا في أي أذىً للسـكان لين، ولم تتعدَ نوايا مدحـت باشـا - رجل الإصلاح المعروف وحاكم ـة الدانوب في سـتينيات القرن التاسـع عشـر (١٨٦٠م) - بقاءها

حبراً على ورقٍ، وهو من حاول أن يمنع استمرار الغجر في سلوك حياتهم المتنقلة بشدة عام ١٨٦٤م، وقد أيد جهده هذا كل السلطات المركزية لكنه لم يجد طريقه للتنفيذ أبداً. ونتيجة لأزمة الإمبراطورية التي مرت بها خلال القرن التاسع عشر، توقف بعض أعضاء المجتمع المحلي في البلقان عن أداء واجباتهم ومهامهم مما دعا الغجر إلى القيام بتلك الأدوار بدلاً منهم، ونجد مثالاً لذلك في نصٍ كتبه سيمون تاباكوف بعنوان (محاولة في تاريخ مدينة سيلفن) يتحدث فيه عن «الفوي نوكس» وهم فئة معينة من المواطنين الذين ظلوا –حتى ذلك الحين- عنصراً أساسياً من عناصر السكان البلغار الذين كانوا يقومون بأداء عدد من الواجبات الخاصة مثل الحراسة المسلحة للممرات الجبلية والعناية بالخيول في قصر السلطان وما إلى ذلك.

وخلال فترة نهاية نظام الفوي نوكس في بلغاريا وذلك بعد صدور تنظيمات عام ١٨٣٩م في إقليم سيلفن – خاصة منطقة جيرافتا – أصبحت مهمة السفر إلى استانبول سنوياً لأجل رعي خيول السلطان وتسريحها بالمراعي مهمة يختص بها الغجر وحدهم. وقد بقي مصطلح «شيري باشا» قائماً منذ ذلك الحين ونعتا لرئيس أو زعيم جماعة الغجر، في حين تعني الكلمة أصلاً في اللغة التركية قائد مجموعة جنود أو زعيم عصابة في العادة.

وخلال فترة انحدار الإمبراطورية العثمانية التي استغرقت ثلاثة قرون، تلاشت الامتيازات التي تمتع بها الغجَر الذين عملوا في خدمة الجيش في وحداته المعاونة تدريجياً، ولم يعدْ أحدٌ يذكر لهم ذلك، وهذا ما يفسر

وورود نـص في تقرير رسـمي قدمته الحكومة فـي ٢١ يناير عام ١٨٧٤م، يقول إن الغجر لم يؤدوا الخدمة أبداً بالجيش لكن قد يُسـمح لهم بذلك، في حين سـيتم إلغاء الضريبة التي تُدفع كرسـم خاصٍ يؤديه المسـيحيون والفئات المماثلة التي لا تُسـتدعى لأداء الخدمة العسكرية وتسمى «البدل العسـكري» وهذا الاقتراح ظلّ مثل معظم محاولات الإصلاح مجرد حبرٍ علـى ورق، كمـا ظلت أوضاع الغجـر كما هي دون تغيّـرٍ يُذكر وللنظرة العامة المتعسـفة نحو الغجر، قامت الإدارة العثمانية باسـتخدامهم ولكن فـي الأعمـال المتدنية فقط. وقـد بالغ في عكس ذلـك الكاتب فيليكس كانيتـز حينما ادعـى أن ٩٩٪ - مالـم يكن ١٠٠٪ - مـن عُمَـد القرى البلغارية كانوا من الغجر المسلمين، وعلى أي حالٍ فالإحصائيات لا تشير إلـى عدد عُمَـد القرى الفعليين وإنما تشـير إلى رجـال الحرس (البودار) الذين عينتهم الدولة لحراسة أراضيها، وقام أهالي القـرى بإمدادهم بالغذاء حيث كان ذلك شـائعاً طوال القرن التاسع عشر وكان الغجر -المسلمون بالطبع- يتم تشغيلهم في فرق البوليس غير المنتظمة «الظبطيات»، وأثناء الانتفاضات والثورات التي كان يقوم بها السـكان والرعايا المحليون، كما سـاهموا أيضاً بكفاءة في القوات المسلحة التركية غير النظامية (المسماة باشبوزقات) وقاموا بدور في نهب وإحراق القرى المسيحية.

٤-٦ مصطفى شيبل

يصعب تحديد دور الغجر بصورة مؤكدة في الأحداث التي أدت إلى انهيار الإمبراطوريـة العثمانيـة، وكذلك طبيعة الاتجاهات الرسـمية والشـعبية

نحوهـم، ومدى انعكاس ذلك على الحالة العامـة لهم في المجتمع، فالمرء يمكنه فقط تخمين اتجاهات العامة - على سـبيل المثال - نحو مشاركاتهم في جماعـات مثيرة مثل جماعتي الكورجالـي والدآلي المعروفتين وقتها، وبالمنطق نفسـه فإنه ليـس واضحاً إذا ما كان المتمـرد «مانوش فوي فود» له وجود حقيقي أم لا، إذ يأتي ذكره في الأهازيج الشـعبية البلغارية التي تفتـرض وجوده في القرن الثامن عشـر، وكلمة «مانـوش» تعني في اللغة الرومانية «الشـخص»، وبالطبع لايمكن قبول ذلك اللفظ كاسـم أولٍ في اللهجة البلغاريـة أو أي لهجات أخرى تمثل أي مجموعة عرقية أخرى في المنطقة. وعلى خلاف ذلك الاسم شبه الأسطوري «مانوش فوي فود»، لانجد شـكاً في وجود الغجري مصطفى شيبل ولد مصطفى في قرية قراديتس، فـي مقاطعة سـليفين وكان خارجاً على القانون حتـى وفاته عام ١٨٥٦، وأصبح النموذج لمنبع الشـخصية الرئيسـية في القصة القصيرة الشهيرة «شـيبل» التي كتبها يوردان يوفكوف، وهو واحد من الكتّاب الكلاسيين في الأدب البلغاري، رغم أن شيبل لم يظهر كغجري في الحكاية.

وتُعد قصة شـيبل نموذجـاً للمعالجة الغامضة الملتبسـة لحدث بعينه من خـلال مصادر مختلفة، كذلك لعدم قدرة الوثائق الرسـمية على كشـف الحقيقـة التاريخية الكاملة. ونقتبس هنا بعضاً من أوراق الإدارة العثمانية المتعلقة بمسـألة مصطفى شـيبل هذا، فهـذا أولاً خطاب مـن حاكم إقليم سيلفن؛

«الخطـاب الحالـي من خادمكم المطيـع والموجه لفخامـة الوزير الضابط الآمر لجيش روميليا، والممثل الأعلى للإمبراطورية العثمانية.

إلـــى فخامتـــــه

إن الفرد المســمى شيبل أو غلو مصطفى هو قاطع طريق معروف، يعود أصلـه إلى جماعـة الغجر التي تعيش في قرية جراديـت بصورة دائمة من إقليــم ســيلفن بالإضافة إلـى بعض من رفاقـه اللصوص، ويجـوب أنحاء الإقليم المذكور والمقاطعات المجاورة، ويسبب دماراً وخسارة للناس الفقراء وللمسيحيين، وذلك بجرأته على سلب ممتلكاتهم بالقوة وعلى قتل أناس وإثــارة غضبهــم. وأرى أن تركه لذلك الســلوك المريع لا يمكن ضمانه. - بواسطتي أنا خادمكم المطيع - ولا أمنحه رضاي ولا ثقتي فيه.

وبرغم حداثة الاســتقرار والعيش الثابت في القرية المذكورة جراديت، أصبح معروفا أنه مازال يطلب -أحيانا وســرا- نقودا وســلعا من الفقراء والمســيحيين، الذين يســكنون هذه المنطقة، واســتهوته العودة من جديد للعنف والظلم وهو ما أدى إلى صدور أمر بإجراء التحقيق في ذلك.

وكمــا ذكــرت فــي تقريــري المرفــوع لفخامتكــم، أخطركم أننــي أنا -خادمكم المطيع- قد علمت محتوى الأمر الكتابي الذي يتعلق بالمسألة، وهو يســتحق التقدير والاعتبار ويبدي الطيبة والخير، ويأمر بتنفيذ إزالة آثار الشر التي سببها الشخص المذكور عاليه مهما كان المبرر الذي سيقدمه كي نُعيد الرفاهية والأمن والطمأنينة والاستقرار لجميع قطاعات السكان والمواطنين.

ولأن المذكــور آنفــا قد ارتكب لعدة ســنوات كل أنواع الشــرور والآثام فــي تلك المناطــق أثناء مناقشــة الأمر الخــاص بإزالة الضرر الذي تســبب فيه،وحينما ثار الســؤال بشــأن غفران أعماله الشــريرة الســابقة، طلب

المسيحيون المقيمون بالقرية المذكورة – وهم يستحقون الاحترام والتقدير – أن يعتمد ذلك التسامح مستقبلا على كلمته التي وعد بها وعلى سلوكه.

وبالنسبة لمسألة توفير الطمأنينة للفقراء في ظل الظروف الموصوفة سابقا، وبفضل المراسلات المكتوبة مع سلطات الإقليم، نعتقد إمكان تحقيق ذلك، وعلى كل فالشخص المذكور هذا لا يمكنه البقاء طويلا دون سلب ونهب وهو أمر متأصل في طبيعته وشخصيته.

ووفقا للمعلومات التي وصلتني والتي فحصتها بدقة بنفسي، فقد تجرأ مؤخرا على تكرار ممارسة بعض الأعمال الشريرة.

آمل بجهودكم أن تختفي ذكرى ذلك الشر والأذى المستفحل الذي قام به اللص المذكور وأن تزول آثار أفعاله وأن كل جهد ممكن سيبذل لتأمين السلام والاستقرار للسكان حتى يتمكن الرعايا المسيحيون من الاستمرار في أعمالهم.

وكما هو معلوم لفخامتكم في هذه المسألة والمسائل الأخرى فإن إصدار الأمر عائد لصاحب الحق في إصداره (يقصد عائد للأمير) ....

بتاريخ ١٠ مارس ١٨٥٣ م

خادمكم المطيع. حاكم إقليم سليفين: السيد علي رضا.

وناقش الجيش القضية وتوصل للقرار الآتي:

٢٥ مارس.

مع بالغ الاحترام، وصدور أمر بواسطة المحكمة العسكرية المؤقتة لاتخاذ الإجراء الآتي:

وفقا لمعنى التحذير المكتوب والاستفسار بشأن الحقائق، التي بُذلتْ بشكل شخصي بهدف إثبات صدقها، يصبح واضحا أن قاطع الطريق المذكور ليس من النوع الذي يمكنه الوفاء بتعهداته أو حتى مستعد للتعلم ولا لإصلاح طريقه في الحياة، فهو جريء ووقح لذا يجب عقابه لأفعاله التي لا يمكن إقرارها، ولكل هذا يجب اتخاذ العناية الضرورية ليبقى في الهيئة التي يستحقها بما وُجد عليه واُكتشف فيه (من شرور).....

ويجب إصدار أمر وزاري بواسطة قائد هيئات الجيش موجه للحاكم المذكور سابقا كيما يرسل ذلك اللص قاطع الطريق بسرعة للتحقيق هنا، مقيدا في الأغلال حتى لا يهرب خلال عملية نقله وكل ما يمكن عمله يجب عمله لتأمين ذلك.

وكما هو معلوم لجلالتكم، فإن إصدار أمر بهذا الشأن موكول لصاحب الأمر (لكم)

التاريخ ٢٥ مارس ١٨٥٣

المجلس الأعلى لجيش روميليا رقم ٩٢١.

وقد اكتسى مصير مصطفى شيبل في قصته بمنحنى مختلف رسمه له المتمرد البلغاري الشهير والناشط في حركة التحرير الوطني البلغارية، بانايوت هيتوف في سيرته الذاتية (كيف أصبحت متمرداً)، تسبب مصطفى شيبل في الكثير من الأضرار، وهو من الغجر الأتراك وكان يرشو حاكم كارنوبات التركي بمبالغ تتراوح بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ ليرة تركية كيما يتظاهر بمطاردته وأنه لم يتمكن من القبض عليه، وعبر فترة تطول من ثمانية إلى عشرة أعوام ضج الأهالي من بورجاس حتى سليفن

وفي كوتل وايلينا وجأروا بالصراخ للسماء وعند سماع اسم «شيبل» كانوا يرتعدون، وقد قبضوا على «مصطفى شيبل» عدة مرات وأخذوه إلى مدينة إيد راين لكنه ظل يهرب وينهب الناس ويجلب عليهم العار.

إذ بينما كان الناس يحصدون محاصيلهم في الحقول كان مع عصابته يهاجمون القرى، وعند عودتهم في المساء كان يحبسهم ويسرقهم في منازلهم بل ويذبحهم. ولو أن تاجرا أراد أن يمضي لعمل ما فإن عصابة «شيبل» تخطر زعيمها بأن ذلك التاجر في طريقه إلى رحلة عمل وسوف يسلك هذا الطريق أو ذاك فينهبه «وبهذه الطريقة جمع ذلك الغجري ثروة طائلة وفي النهاية سامحه الأتراك، ثم جاء إلى قرية «جرادت» وبدأ يحيا كالعظماء كما لو كان «أغا» كبيراً وعاش كبطل وأمر رعاة الماعز في القرى المجاورة أن يرسل كل واحد منهم إليه من خمس إلى عشر عنزات كما كانوا يفعلون مع أي «أغا» يحكمهم، كان هو أيضا لديه عديد من العنزات في الغابة. وقد أطاعه أولئك الرعاة إذ من يجرؤ على عدم إرسال ما يطلب أو الامتناع عليه ؟ فلو أنهم رفضوا سيقوم بذبحهم في اليوم نفسه. وفوق كل ذلك اختطف «مصطفى». (ذلك الغجري) امرأة بلغارية واتخذها زوجة من نفس قرية «جرادت» التي كانت تحت سلطة العمدة «فوربان شوربانجي» اسمها «جندة» وكان لها زوج لكنه ضعيف كالمرأة العجوز لا يملك روح الشجاعة لقتل زوجته أو قتل الغجري - لذا ترك زوجته للغجري مصطفى الذي غمرها بالعملات الذهبية التركية القديمة وتحملت قرية جرادت تلك الإهانة التي أوقعها بها غجري تركي نكرة، وأكاد أقول إن ذلك الرجل لم يكن خارقا....

لقد رأيته مرة عندما كان في سـجن سـيلفن ولـم أصدق أن ذلك الرجل ذا البنية المكتملة، الطويل الأشـقر، عريـض المنكبين كان من الغجر لكنهم أخـذوه بعيـدا وهو يتباهى بأنه قد منح سـلطان سـليفن نقـودا من أجل مبانـي الحكومة (كوناك) وأنه قد رشـا بعضا من المسـؤولين، وفيما بعد ولهذا السـبب البسيط أرسل الأتراك فرقة من الشـرطة من مدينة يامبول لعمـل كمين على الطريق الواصل بين قرية جرادت وكايابيش ثم أرسـلوا رجلا تركيا لمدينة جرادت لإخبار مصطفى شـيبل أن أصدقاءه في انتظاره لتنفيذ عملية سرقة كبرى حيث إنهم ليسوا قادرين على ذلك بدونه وقام مصطفى بتسـليح نفسه وامتطى جواده وغادر جرادت وقبل أن يمضي في الطريق لنصف سـاعة من الزمن انطلقت رصاصـات بنادق جنود الكمين وهكذا تم قتل ذلك الغجري.

٤-٧ الغجر الرحل

خـلال تلك الفترة اسـتمر عدد كبيـر من الغجر في ظـل الإمبراطورية يعيشـون حياة الترحال وهناك وصفٌ تفصيلي - نسبيا - للغجر الرُحّل يمكن أن نجده في كتابات أليكساندر باسباتي:

«رغـم أنهـم - أي الغجـر - يوجـدون بأعـداد كبيـرة فـي كل مناطق روميليـا، إلا أنـه يمكـن تأكيد وجودهـم بأكبر الأعداد فـي منطقة ثراس القديمة. وتأخذنا الدهشة عندما تظهر خيامهم السود، أثناء الفصل الحار مـن السـنة، كبقعٍ قاتمةٍ في سـاحات المـدن بالإضافة إلـى ضواحي القرى والمدن الصغيرة، فالمرءُ يراهم في كل مكان بخيامهم وأمتعتهم وأطفالهم

مصحوبين بحميرهم وخيولهم منتقلين من مكان لآخر، أحيانا تجد عائلة واحدة وأخرى تجد أكثر من واحدة، وخارج أطراف المدن المزدحمة - يمكن رؤية الكثير من الخيام الضخمة التي تؤوي أكثر من عائلة - العائلات التي تتوقف هنا تتخذ من المكان محلا للإقامة في أوقات دون أن يعرف بعضهم بعضاً، ويهجر الغجر مأواهم الشتوي ويدعونه كيشلا أحيانا وسط أبريل ثم ينتشرون في الأقاليم المختلفة تبعا لمواسم السنة، فبعضهم يترك الشمال ويرحل عبر شبه جزيرة البلقان حتى يصل لأبعد مكان في آسيا الصغرى، في حين يرتقي الآخرون الأجزاء الشمالية من جبال البلقان ثم يعودون ثانية وسط شهر أكتوبر، وفي المقابل لا يهجر بعضهم إقليمهم الذي ينتقلون في أرجائه باستمرار فيتعرفون على كل السكان في القرى بالإضافة لمعرفتهم باحتياجات الحرفيين والقرويين الخ، وهم - غالبا - يعودون إلى مأواهم الشتوي، مخيمين عادة خارج القرى بالقرب من إحدى الآبار في حين ترعى حيواناتهم وهي مربوطة من أرجلها بالخيام، أما في القرى التركية، حيث يكونون أقل احتقارا، يمكن رؤية خيامهم - في الغالب - موزعة وسط القرى ويبدو النموذج الموصوف آنفا لحياة الترحال الفصليّ، مع وجود مأوى شتوي دائم وهو نموذج قديم تماما ومميز لخصائص الغجر في القرون السابقة وكان معتادا في البلقان ثم استمر مع بعض التغيرات حتى عصرنا الحالي».

وتستحق ملاحظات آمي بويه حول طريقة حياة الغجر الرُحّل أن نقتبسها هنا:

«يعيش الرُحّل في خيام بائسة من قماش رمادي أو أسود ملطخ

بالزيوت، وهم ينشرون خيامهم تلك عند مداخل القرى أو يقومون ببناء أكواخ خشبية مغطاة بالقش لأنفسهم، باستثناء ألبانيا بشكل خاص، فهم يستطيعون العيش في عربات مغطاة بفروع الشجر أو بنسيج من القماش، وبالقرب منهم يمكن للمرء أن يرى الثيران أو الجواميس التي تقوم بجر تلك العربات وهي ترعى مع البقر التي يقوم بتربيتها سكان هذه العربات.

وأغلب هؤلاء الرُّحّل يقودون الخيل وحينما يرتحلون تبدو الجماعة في صورة خلابة، وأمام ذلك الطابور يتقدم غجري مسلح، حتى سلاحه كان عبارة عن بندقية ألبانية.

ثم يأتي بعده النساء والأطفال يقودون الخيل كذلك - مع بعض من الأفراد على خيول منفردة - ثم تأتي العربات وبقية الرجال سواء على أقدامهم أم على ظهور الخيل وبدلاً من الالتجاء للفنادق (للمبيت) يقضون ليلتهم على حافة الغابة حيث يقيمون مأواهم حول نار كبيرة، وتتكون أدوات حرفهم من السندان والكوْر وبعض الزرديات «الكماشة» والمطرقة والمبرد والمفك وكلها أدوات للحرفيين الغجر الرحل.

٤-٨ الغجر الفلاحون (عمال المزارع)

تكشف المصادر من نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً عدداً متزايداً من محال الإقامة الدائمة للغجر في القرى واعتمادهم على الفلاحة، وهو اتجاه برز من قرون باكرة في العهد العثماني، إذ يذكر الإنجليزي «ويليام ماكميشيل» -وهو يعبر الأراضي البلغارية عام ١٨١٨م- عدة قرى في

إقليم يانترا السفلي، «قرى يسكنها الغجر بأكملها... الذين استقروا فيها وانخرطوا في أعمال الزراعة ورغم أنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين، إلا أنهم يدفعون ضريبة الرأس كالمسيحيين» وفي القرن التاسع عشر يصف آمي بويه قرى الغجر مثل قرية هيبي بجي بالقرب من إيدراين وفوينيكو في جبل بيند، بقوله «وجود تلك القرى مسكونة تماماً بالغجر يوحي بأن سكانها هم من العمال الزراعيين ولو أن قرية عاش بها قليل من عائلات الغجر فالفرض الطبيعي أنهم يمثلون حرفيي القرية، وعلى كل لو كان سكان القرية كلهم من الغجر فمن المنطقي أن نتوقع أنهم - بخلاف قلة من الحرفيين - من العمال الزراعيين في أغلبهم. وفي اللهجة البلقانية تعني كلمة «سيليانين» في الغالب كلمة عامل زراعي حيث يتعيشون كلية من العمل الزراعي، بالإضافة إلى أنه من المثير ملاحظة اسم آخر قرية ذكرها آمي بويه وهي فوينيكو قد تتعلق بفئة خاصة من السكان في أوروبا في عصر سابق، أولئك المسمون «فوينكس» الذين ذكروا تواً وبذلك يكون من الممكن أن الغجر المنتمين لتلك القرية قد امتازوا بكونهم من احتياطي الجيش العثماني وكان هناك تطور آخر في استقرار الغجر واحتراف الزراعة كمهنة منتظمة هو تنامي عدد مزارع القرى (تشيفلك كوي)، وقرى التسكين لعمال المزارع في ضواحي المزارع المقامة حديثاً، حيث يؤخذ منها الغجر كعمال بالأجر طوال السنة أو في فصل بعينه.

ويقول ستيفان زاهاريف في وصفه التفصيلي لمقاطعة تتار- بازارجيك عام ١٨٧٠م، أن الغجر في عدد من القرى كانوا «مزارعين ومربي ماشية».

في «يامورلار ١٠ عائلات و٣٥ من السكان البلغاريين ولهم ثلاث مزارع، و١٠ عائلات من الغجر يعملون بأجر كعمال مزارع (راتاي) و٢٠ من السكان الغجر. وفي شارجانلو -وهي قرية تركية - ٣٥ عائلة تركية و٣٠ عائلة غجرية ومئة غجري كلهم عمال مزارع».

ووصف فاسيل كونتشوف لمقدونيا التي تعود لنهاية القرن التاسع عشر يتشابه مع ما سبق:

- «جوانتسي» مزرعة تقع جنوب فوربيني بحوالي ٢ كم وبها ٣٠ عائلة، ثلاث منها تركية وسبع وعشرون من الغجر.
- «وإنسكو» بها حوالي ١٥ عائلة نصفهم من الألبان المسلمين (أرناؤط) والنصف غجر من عمال المزارع.
- «نوفو سيلكو» مزرعة صغيرة بها حوالي ٢٠ عائلة غجرية.
- «سوغ» بها حوالي ٥٠ عائلة، منهم ثلاثون من الأتراك وعشرون من الغجر الفلاحين.

٤-٩ الموسيقيون الغجر

خلال فترة انحدار الإمبراطورية العثمانية. بقي تمايز وبراعة الموسيقيين الغجر في المجتمع دون أي تغيير وفقاً لما ذكره أليكساندر باسباتي الذي يصف حياة الموسيقيين الغجر من القرى المجاورة لأستانبول بقوله «إنهم يذهبون من قرية لأخرى من أجل الاحتفالات والأعياد الخاصة بكل من المسيحيين والأتراك (المسلمين) سواء بسواء، فيعزفون الموسيقى ويغنون» ويلاحظ ذلك آمي بويه» بقوله:

«يمكن القول إنه بقدر أهمية الموسيقى لهؤلاء الغجر، فإن لها استخداما حقيقيا في أراضي تركيا».

ونحن نجد خلال القرن التاسع عشر ولأول مرة إشارات لحفلات عامة للموسيقى الغجرية، ورغم أنهم ليس عليهم التزامات قانونية تجاه الإدارة العثمانية، إلا أن مجموعات من الموسيقيين قد تمت دعوتهم على يد السلطات المحلية لعزف موسيقاهم في مناسبات معينة. ولنأخذ عام ١٨٤٦م كمثال عند استقبال السلطان عبد المجيد في جبروفو، حيث تمت دعوة فرقتين من الغجر من أجل الاحتفال في المدينتين المجاورتين تورنوفو وتريافنا. وقد سُر السلطان بموسيقاهم وبالإضافة إلى منحهم إكرامية «البقشيش» قام بمكافأة قائدهم بابا تسفياتكو بإهدائه آلة كمان مرسلةً خصيصاً من استانبول ومزينةً بالعاج، ومجموعة الغجر الموسيقية تجمع عادة آلتيْ الزورباس التقليديتين ومعهما طبلان، وتعزف - كذلك - في الأعياد المحلية لنوعية خاصة من الاحتفالات (عيد التستير مثلاً).

٤-١٠ طبقة العمال من الغجر

قام بعض الغجر في بلغاريا بتثبيت أنفسهم في حِرَفٍ جديدة تماماً، دون وجود سوابق لها وسط أبناء عمومتهم في أنحاء أوروبا، كما في حالة طبقة العمال الغجر «البروليتاريا» في مدينة سليفن.

قام البلغاري دوبري جيليازكوف المعروف بـ«رجل المصنع» بافتتاح أول مصنع حديث للنسيج عام ١٨٣٦ في مدينة سيلفن لإنتاج القماش للدولة وبصفة أساسية للجيش العثماني، وكانت قوة العمل الرئيسية

فيه من الغجر في المدينة نفسها حيث كان البلغار في ذلك الوقت من الحرفيين الصغار والتجار أو منخرطين في العمل الزراعي، وكانت الأيدي العاملة الوحيدة غير المرتبطة بأعمال بعينها هي قوة الغجر (رجال ونساء - وحتى الأطفال) وبالتدريج قامت طبقة عاملة ثابتة من العائلات الغجرية مرتبطة بصناعة النسيج التي ازداد عددها بعد تحرير بلغاريا بقدر له شأنه عام ١٨٧٨م عندما تم افتتاح عدد من المصانع الجديدة في سيلفن فأصبحت مركزاً لصناعة النسيج.

٤-١١ الإحياء القومي لشعب البلقان

يجب أن نولي تقديراً خاصاً لمركز الغجر في الولايات الجديدة في البلقان التي بزغت وسط أراضي الإمبراطورية، وكان القرن التاسع عشر هو قرن القومية لأهل البلقان عندما ظهر عدد من الدول الجديدة بعد سلسلة طويلة من الانتفاضات والحروب (خاصة بين تركيا وروسيا) ومن هذه الدول بلغاريا واليونان ومونتينجرو والصرب في حين تخلصت محليات مولدافيا وفالاشيا من الإمبراطورية، وظلت تلك الدول -على أي حال- في مدار الإمبراطورية العثمانية وارتبطوا بها لفترة طويلة كولايات وبالضرائب السنوية أو بوجود الحاميات التركية واحتفاظها بملامح كثيرة للتقاليد التاريخية والثقافية العثمانية، وحتى بنيتها الإدارية عكست ذلك الميراث.

وقد شارك الغجر في نضال التحرر القومي لشعب البلقان إذ ساهم كل من إيليا بلافيتش «الغجري» وأخيه مويو (الذي توفي عام ١٨٠٧م)

في انتفاضات الصرب ضد العثمانيين عند بدايات القرن التاسع عشر، وهناك دلائل تشير إلى ارتباط جماعات أخرى من الغجر بهذه الحركات كما كانت هناك حالات أصبح فيها الغجر ضحايا للأهالي المتمردين والمحليين مثلما حدث في انتفاضة أبريل ١٨٧٦م في بلغاريا، عندما قام المتمردون بذبح كل سكان حي الغجر رجالاً ونساءً وأطفالاً في مدينة كوبريفش تيتسا.

٤-١٢ ضريبة الرأس في صربيا

كان أمثلُ نموذجٍ أفرز تأثيراً قوياً على تقاليد الإدارة العثمانية وظل تأثيره نافذاً في الولايات الجديدة بالبلقان هو الحالة المسماة ضريبة الرأس على الغجر في الصرب، بعدما حصلت صربيا على درجة من الحكم الذاتي عام ١٨١٢م، ظلت الدولة الجديدة بقيادة الأمير ميلوش أوبرينوفيتش مرتبطة بالإمبراطورية بواسطة عدد من الالتزامات الضريبية والعسكرية، كما استمرت الممارسات القديمة في تحصيل الضرائب التي تعود إلى عهد الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك ضريبة الرأس الخاصة بالغجر والمسماة آراش في لغة الصرب.

وقد احتفظت الصرب بضريبة الرأس المقررة خصيصاً من أجل الغجر، لأولئك الذين يقيمون بشكل دائم في مكان واحد كانت الضريبة ١١ جروت سنوياً لكل فرد عمره ما بين ١٥ إلى ٨٠ سنة، في حين كانت تلك الضريبة ٤ جروت للأطفال، وبالنسبة لأولئك الذين ينتقلون من مقاطعة لأخرى (أي أولئك الذين يعيشون حياة البدو والترحُل) فقد فُرضت عام

١٨١٨م بمقدار ٢١ جروت لكل فرد سنوياً، وهكذا كانت الفكرة وراء النظام الضريبي في صربيا -كما كانت في النظام العثماني- تستهدف تشجيع الغجر على الاستقرار، أما الغجر الذين عاشوا في بلغراد فقد أعفوا من تلك الضريبة لكن كان عليهم أن يسددوا باقي الضرائب مع السكان المحليين.

والرقم الفعلي لمبلغ الضريبة الواجبة السداد تغيّر عدة مرات وعلى سبيل المثال عام ١٨٢٧م أصبحت تلك الضريبة الخاصة ٨ جروت لكل طفل بين سبع سنوات إلى خمس عشرة سنة، في حين يسدد الأفراد فيها بين ١٥ سنة إلى ٨٠ سنة ٢١ جروت، وبعد عدة سنوات من ذلك التاريخ فرضت الضريبة على الأفراد بين سبع إلى أربع عشرة سنة بمقدار ٨ جروت لكل واحد، ومن ١٤ سنة حتى الزواج ١٢ جروت ومن الزواج حتى الوفاة ٢٤ جروت سنوياً.

وكمبدأ، وجب أن تؤدي تلك الضريبة الخاصة المفروضة على الغجر إلى إعفائهم من أي التزامات ضريبية أخرى نحو الدولة، وهكذا فرغم اتسامها بصفة التمييز، إلا أنها تحولت إلى امتياز ضريبي خاص ومنذ ذلك الحين كانوا يدفعون ضرائب أقل مما يدفعه السكان من الصرب.

وفي مجال التطبيق لم يكن ذلك الإعفاء من كل الضرائب الأخرى يمثل تكريماً إذ أدى ذلك إلى تقديم الغجر لعدد من الشكاوى إلى الأمير ميلوش، وأكثر حالات شكاواهم سوءاً كانت تلك التي أُسيء فيها استغلال جامعي الضرائب (أراكلياس) للغجر، وهم غير الغجر الذين عيّنهم الأمير خصيصاً لجمع الضرائب، وكانوا يحصلون مبالغ من النقود

أكبر كثيراً من الضريبة المقررة، وهو ماكان محلاً للعديد من الشكاوى المقدمة للأمير الذي كان لا يبدي اهتماماً بها حيث كان يعين خلصاءه في ذلك المنصب مكافأة لهم، وعلى كلٍ فقد أبدى الأمير -أحياناً- طيبة وأعفى بعض الغجر من سداد تلك الضريبة الإضافية.

وبخلاف تحصيل الضرائب، كان لجامعي الضرائب هؤلاء عدد من المهام الأخرى وعلى رأسها تطبيق العدالة بين الغجر، وتنفيذ العقوبات والغرامات والواجبات الأخرى، فمثلاً جاء في فرمان الأمير الصادر عام ١٨١٩م، إن محصل ضريبة الرأس الخاصة بالغجر سيميون لو جوفيت قد تم تعيينه «حاكماً أعلى لكل الغجر»، ويمثل الغجر في كل شؤونهم وليس لأي شخص التدخل في أموره. وقد أثار محصلو الضرائب خوفاً كبيراً بين جماعات الغجر، وكانوا شخصيات معروفة جيداً في المجتمع الصربي، والأكثر شهرة بينهم هو آخرهم في تولي تلك الوظيفة وهو أتاناسي يوفانوفيتش (المدعو تاسا أراكليا) وكان لمساعديهم وكتبتهم - الذين احتفظوا بقوائم التزامات الغجر من الضرائب محلياً - حقوق وواجبات محصلي الضرائب أنفسهم، في حين كان عُمَدُ الغجر معينين من قبل ذاتهم في المدن والمجتمعات المحلية، وكانت وظيفتهم مماثلة لمهمة زعيم الغجر قديماً (والمسمى شيري باشا المسؤول عن كل جماعة خاضعة للضريبة) في الإمبراطورية العثمانية، وكانوا يساعدون في جمع ضريبة الرأس - وتُدفع مقدماً ثم تُسترد فيما بعد من الغجر - وكان لهم بعض السلطات الإدارية المحدودة على الغجر، فهم يستطيعون مثلاً فرض غرامات واتخاذ قرارات في النزاعات الصغيرة.

كانت السلطة القانونية لجامع الضرائب من الغجر محدودة بما يتواءم مع دستور ١٨٣٨م ونتيجة لهذا - وفي العام التالي مباشرة - قررت وزارة الداخلية أن القضايا التي تتضمن غجراً يجب أن تجري أمام محكمة الإقليم وأن على محصل الضرائب ألا يتدخل في تلك القضايا.

وبدأت ضريبة الرأس المقررة على الغجر في الزوال حيث أصدر مجلس الوزراء قراراً أكده مجلس الدولة أن الغجر المستقرين في منازل ثابتة سيتم إعفاؤهم من سداد ضريبة الرأس وسيتم منحهم حقوق مواطني الصرب الباقين نفسها ولكن عندما استفسر المجلس الإقليمي لمدينة سميديريفو عما إذا كان ذلك ينطبق على الغجر المسلمين، أجابته وزارة المالية بأن أولئك الغجر يجب أن يستمروا في دفع ضريبة الرأس (موضحة أن سياستهم ليست فقط لتشجيع الاستقرار والتوطن وإنما لتشجيع التحول إلى المسيحية الأرثوذكسية كذلك).

ولم تجر عمليات تغيير الحالة المدنية أو الالتزامات الضريبية للغجر بيسر وسهولة، رغم أن قانون المواطنة الجديد الصادر عام ١٨٤٤ منح الغجر حقوق المواطنين الصرب نفسها إلا أن السلطات المحلية غالباً ما فضلت الالتزام بالممارسات القديمة (وكذلك فعل بعض الغجر حيث قد يعني ذلك سداد ضرائب أقل) وفي عام ١٨٥٣ أكد قرار خاص أن على الغجر المقيمين دفع ضرائبهم للسلطات المحلية كما يفعل باقي المواطنين في حين يستمر الغجر الرحل في دفع ضريبة الرأس التي أصبحت - عندئذ - ٢٤ جروت للبالغين المتزوجين و١٢ جروت للبالغين غير المتزوجين و٨ جروت للأطفال بين ٨ إلى ١٤ سنة وهو ما كان يجب سداده للسلطات

المحلية في قرية معينة ومحددة حيث وَجَب عليهم أن يسجلوا فيها، أما أولئك الغجر الذين تدفع بهم طرق حياتهم المتنقلة إلى خارج حدود وحداتهم الإدارية فيجب إصدار جوازات سفر خاصة لهم.

وبذلك القرار تداعى بنيان جامعي الضرائب من الغجر، ومع تأكيد ذلك بفرمان خاص أصدره الأمير عام ١٨٥٤ م، تم توجيه عدد من الشكاوى إلى أمير صربيا توسل فيه الغجر أن «حريتهم يجب ألا يتم سلبها منهم» وأن النظام السابق يجب الإبقاء عليه لكن تلك الشكاوى ذهبت هباءً.

استمر الغجر الرحل في دفع ضريبة الرأس حتى بعد عام ١٨٥٥ الذي حدث فيه الإصلاح المالي في صربيا وبعد التشريع الضريبي الجديد الذي صدر عام ١٨٦٤م. وقد أكد الدستور الصربي لعام ١٨٦٩ م المساواة في الحقوق لكل الغجر لكن في الوقت نفسه (مع القانون الانتخابي) لم يسمح للغجر الرُحّل بالمشاركة في انتخابات أعضاء البرلمان لأنهم لم يكونوا دافعي ضرائب عاديين وإنما هم يدفعون ضريبة الرأس المقررة للغجر، ولم يتوقف هذا التمييز إلا بعد صدور قانون الضريبة المباشرة لعام ١٨٨٤م الذي وَحّد معايير الضرائب أمام كل الرعايا الصربيين ولم يعد هناك تمييزٌ للغجر كفئة خاصة من السكان حيث اكتسبوا في النهاية الحقوق المدنية نفسها التي تخص المواطنين الآخرين.

٤-١٣ الغجر والمؤسسات الدينية

صاحب وقت التحول نفسه في الحالة المدنية للغجر في صربيا، تحولٌ آخر هو قيام العديد منهم بتغيير أسمائهم من أسماء مسلمة إلى مسيحية

ومعهـا أيضاً تغيير في العقيدة، وقد تم تشـجيع ذلك بواسـطة السياسـة الضريبيـة وغالباً ما كانت تُدار وتُنفذ بمبادرة من السـلطات المحلية، وهي السياسـة التي طُبقت أيضاً على الأراضي الجديدة، في أقاليم نيش وفراني مثـلاً التـي منحها مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م لصربيا، حيث أصدر أسـقف تيموك عام ١٨٩٢ م أمراً سـرياً يُلزم السـلطات المحليـة «بالتعاون» حتى يقبل «الكفرة» الدين المسيحي.

وبشـكل عام كانت المؤسسات الدينية المسـيحية متشككة إزاء الغجر وقال الأسـقف البلغاري فـي حفل ديني أقيم عـام ١٨٦٠ م «إنها خطيئة كبرى أن نهب الزكاة للغجر والملاحدة..».

وهناك اتجاه مشابه يكشف عنه وصف حادثة مأساوية يسجله إليكساندر باسـباتي في عـام ١٨٦٦م في قريـة صغيرة بالقرب من كورلو واسـمها ويجيرفي فيما بين القسـطنطينية وأدريانبـول كانت مجموعة من الغجر يخيمون مع دببتهم، وبأسـمائهم (الإسـلامية كانوا يعتبرون مسـلمين فـي بوهيميـا) وذات ليلة وبينمـا كان واحد منهم اسـمه مصطفى يهم بعبور النهر ومعه دبه، انغرس حتى صدره وسـط الرمال المتحركة فصرخ طالباً النجدة وسُـمعتْ صرخاته في القرية المجاورة، وحيث إن السـكان افترضـوا أن تلـك الصرخات قادمة مـن لصوص، لم يتحرك أي شـخص للمسـاعدة، وتركوه للموت دونما معونة، وذهب أصحابه إلى القسـيس ليقـوم بدفنـه لكنه رفض دفن الغجري الميت لأنه علم أن ذلك الرجل كان يسـمى مصطفى حتى اليوم السابق لموته، لكن أصحابه أوضحوا أن اسمه تيـودور وفي النهاية عندما لم يكتشـف الأتراك أي آثـار للاختتان بجثته

أعادوه على أنه مسيحي إلى أهل القرية ودُفن وفقاً للطقوس المسيحية. وبغض النظر عن تعاليم الكنيسة، ظلت اتجاهات المسيحيين من شعب البلقان نحو الغجر واحدةً من النماذج العرقية المتشددة، كما يتضح من البرقية التي أرسلتها قرية إيكشي سو في مقدونيا إلى جريدة «نوفيني» الصادرة في استانبول عند نهاية القرن التاسع عشر:

«تخطركم هذه القرية بواقعة مثيرة تتعلق بغجري اسمه ستيفان. لم يكن قادراً على إيجاد امرأة تحبه بصورة تكفي لقبولها الزواج به، لذا ذهب إلى قرية أوليشتا ومعه أحد أصدقائه، وهناك أخفيا أصلهما الغجري وبذلك وجدا امرأة غير غجرية، تزوجها ستيفان وأخذ زوجته معه إلى ايكش سو، وفي خلال أيام قليلة ذهب والد العروس لزيارتها وما إن اكتشف أن صهره غجري، حتى جمع الوالد أشياء ابنته - بناء على نصيحة الناس - وأخذها إلى القسيس المحلي، إذ كان من العار والمخالف للتقاليد أن تتزوج امرأة غير غجرية برجل غجري حتى لو كان الأخير مسيحياً وبعد أيام قليلة - أخرى - تزوجت المرأة برجلٍ جديد دون أن تُنهي الزواج الأول بشكل قانوني، وتركوا الغجري دون زوجة، والبرقية تركز على أن ما حدث لم يكن قانونياً لأن الزواج الثاني تم تنفيذه دون حل عقدة الزواج الأول».

وإلى مدى بعيد، كان اتجاه المؤسسات الدينية الإسلامية نحو الغجر مماثلاً لاتجاه الكنيسة الأرثوذكسية، إذ حتى اليوم يدفن الغجر في البلقان عادة في أجزاء منعزلة عن مقابر المسلمين.

وتنتشر بعيداً في البلقان حتى اليوم الحكمة التركية القديمة التي تقول

يوجد في العالم اثنان وسبعون عقيدة ونصف عقيدة، وذلك النصف هو عقيدة الغجر، ومثل تلك المقولة لدى المسيحيين تجعل من العقائد سبعاً وسبعين عقيدة ونصف عقيدة والنصيب الأخير للغجر.

٤-١٤ الاتجاهات الاجتماعية نحو الغجر

الوضع الذي اتخذته المؤسسات الدينية تجاه الغجر كان في الخط نفسه لاتجاهات الناس الاجتماعية السلبية ككل، وبقدر ما هي بين الأتراك العثمانيين تجدها كذلك بين الرعايا المحليين من سكان البلقان ويشير إلى ذلك آمي بويه:

إن الأتراك كالمسيحيين تماماً يحتقرونهم «أي الغجر» ولذلك لا تجد بين السابقين ولا الأخيرين من يرغب -أبداً- في الأكل والشرب مع الغجر على المائدة نفسها».

وقد يكون أوجز وأبلغ تقييم للنموذج السلبي للغجر الذي يحمله السكان الآخرون في ظل الإمبراطورية العثمانية هو ما قاله كونستانتين جيريك:

«محتقرون من الأتراك ومكروهون من المسيحيين ينظرُ السكان المحيطون إلى الغجر ككل مكان آخر، على أنهم غير أنقياء، ومن جنس مختلف أخلاقياً وعقلياً».

وقُدُماً نستطيع أن نؤكد أنه ولمدى بعيد ظلت الاتجاهات نحو الغجر ثابتة لا تتغير في البلقان حتى اليوم رغم أن كل فرد مقتنع تماماً بوجود تسامح كبير بادٍ تجاه المجموعات العرقية الأخرى.

وقد أسفرتْ الآراء الاجتماعية للجماهير عن طبيعتها في مجرى الحياة اليومية، كما هو واضح في العلاقات بين سكان الإمبراطورية المحليين وبين الغجر، وهي علاقة -غالباً- ما أدت إلى صراعات كان يتم حلها على حساب الإضرار بالغجر، وقد جاء وصف أحد الأحداث التي جرت في إقليم فارنا في النصف الثاني من القرن العشرين تفصيلاً فيما كتبه قنصلا بريطانيا تشارلز بروفي وستانيسلاس كلير:

«يكسب الغجر عيشهم أساساً بإضافة حصيلة جهودهم من العمل الحرفي إلى ما يبيعونه من منتجات قطعانهم الصغيرة من الزبد واللبن في المدن، وعلى أي حال، طالما هم ليسوا ملاكَ أرضٍ، كان عليهم شراء الدقيق لسد احتياجاتهم وشراء الحبوب لحيواناتهم من المسيحيين، وقد رفع القرويون أسعارهم فأصبحت كل سلعة تباع غالية الثمن جداً، وكان الدفع نقداً أو لقاء عمل، وعندما يقدم الغجر الثمن عملاً بجهدهم، كانت الفائدة تزداد ارتفاعاً حيث كان يمكن تخفيض أجر عمل الغجر بصورة عشوائية، من هنا كان الغجر مصدراً جيداً لانتفاع القرويين.

وعلى كل، كانت قطعانهم ترعى الحقول عندما يحل الربيع، فيمكنهم أن يبيعوا زبداً ولبناً أكثر في فارنا وهكذا يكسبون أكثر ويصبحون أقل اعتماداً على القرية، عندئذ استدعى سكان القرية المحليون قادتهم لعقد اجتماع قرروا على أثره إبعاد الغجر، وحيث كان الغجر يقومون بتربية قطعانهم في المراعي دون دفع ثمن لتلك الميزة ويشترون قليلاً مما تنتجه القرية في الوقت نفسه- ويجب أن نضيف في هذا الصدد أن المسيحيين أنفسهم لا يدفعون شيئاً لقاء استخدام تلك المساحات الشاسعة من

الأراضي بمراعيها - لكنهم أثاروا ضجة لاستخدام الغجر لتلك الأراضي.

وقد انتهى الضغط الذي أعقب ذلك «بطريقة رقيقة !!» فذات ليلة ودون سابق إنذار اندلعت النار في منازل الغجر حتى يُضطر المساكين إلى الرحيل، وفي الشتاء عاد الكثير منهم وسألوا إذا ما كانوا يستطيعون الإقامة في مكان مختلف بالقرب من القرية، ومنذ ذلك الحين أصبح الشتاء بالنسبة لسكان تلك القرية «ديري - كوي» أكثر فصول السنة ربحاً بسبب وجود الغجر، فمنحوهم الموافقة - بكل سرور».

وقد شكا الغجر للسلطات العثمانية دونما مجيب، وكان تفسير ذلك «الصمت» أن لديهم تعليمات من استانبول بأن يكونوا حذرين كي لا يؤلموا البلغاريين.

٤-١٥ بداية الخلاص للغجر

شهد القرن التاسع عشر مرحلة جديدة في تطور وعي الغجر بأنفسهم في البلقان عندما بُذلت المحاولات الأولى لتناول مسألة خلاصهم الاجتماعي. ففي عام ١٨٦٦م قام الكاتب البلغاري المعروف بيتكو راشيف سلافيكوف بنشر مقالته «الغجر» في جريدة تصدر في استانبول تدعى «جايدا»، وزعم في المقالة أن الغجر انحدروا من مصر القديمة وأسند إليهم عملية جلب إنجازات علومهم إلى اليونان القديمة، كما اعتقد سلافيكوف أن لغة الغجر قد أثرت على اللغة اليونانية، وفسر اسم «أثينا» باشتقاقه من كلمة أتسنجاني، كانت الخلفية العلمية للمقالة ضعيفة، وكان دافعها إلى حد كبير هو المشاركة في النضال الاجتماعي

لاستقلال الكنيسة البلغارية لتنفصل عن سيطرة بابوية اليونان، وكانت الجريدتان جايدا ومقدونيا القوة الدافعة وراء هذه الحركة وكان بيتكو سلافيكوف أحد قادتها. وكان للمقالة تأثيرٌ ذو قيمة على زعماء المجتمع الغجري وبعد عام من ذلك التاريخ نشرت جريدة مقدونيا التي كان يحررها بيتكو النص التالي في «خطاب إلى المحرر» وقعه من أَسْمى نفسه «مصري» من بريليب في مقدونيا:

«بريليب – ٣ يونيو ١٨٦٧م

عزيزي محرر جريدة «مقدونيا»

كل شخص يعلم السبب في أن المصريين هم أكثر الناس امتهاناً بين كل المسيحيين، لأنهم لا يتبعون أسرار العقيدة الأرثوذكسية بدقة أو على الأقل ليس بالطريقة التي يريدها منهم المسؤولون عن النظام من الفاناريين[1]، وهم التابعون لبابوية اليونان الأرثوذكسية، وسوف تدرك ما وراء ذلك فيما بعد والآن لو أنك سألت أحداً من الفناريوتس هؤلاء من هم؟ ولماذا وصلوا لتلك المناصب؟ لسوف تسمع الإجابة المعتادة بأنهم حراس العقيدة وأنهم الوحيدون أصحاب الحق في ذلك، لأنهم أتباع حواريي المسيح، ولو تأهبت لفحص أمورهم سوف تكتشف أنهم

1 – Phanario مسؤولون يونانيو الأصل وحكوميون يعملون تحت إمرة الأتراك ويعيشون بحي اسمه «phanar» في القسطنطينية. المترجم

مدمري العقيدة وأحكامها مستغلين براءة وبساطة القبائل الأخرى، وهم يستخدمون الدين لإيقاف التقدم وإبقاء أصحابه خاضعين ومستعبدين.

وبذلك يدمرون عدالة إلهنا التي منحها لكل إنسان على الأرض ممن تعمدوا باسمه «لكم جميعاً يا من تعمدتم باسم المسيح لقد ألبستم أنفسكم المسيح»(سفر الجالاتيين-الآيات ٣-٢٧) وهم يصرخون بأن على كل الشعب المؤمن بالأرثوذكسية أن يخضع للسلطة الروحية لأولئك المسؤولين اليونانيين وليس لأي أحد آخر أن يحوز سيادتهم الروحية. وفي إطار ذلك حدث الكثير من الأخطاء، ومازالت الأخطاء مستمرة حتى اليوم نحو البلغاريين الذين يحمون حقوقهم بالعدل، تلك الحقوق التي منحت لهم ليس فقط من مبادئ الحواريين وإنما بسبب أنهم كانوا يحوزون بعضا منها في الماضي. لكن اليونانيين يصرون على عنادهم ودعواهم دون أن يدركوا أن الزمن قد تغير ولكنهم بانتمائهم للسلافيين روحيا يزعمون أن لديهم الحق في تنوير الناس ثم يسرقونهم جهارا، كيف يمكن ألا يشعروا بالخزي عندما يصرحون بأمور مخجلة، خاصة أن أبسط الناس يعلم أنه ليس بين حواريي المسيح -الذين كانت مهمتهم هداية الناس بعقيدة المسيح - من كان اسمه هيلين[1]، وهذا يبين بوضوح أن الأمر ليس

---

1 - هيلين EAA´ بمعني يوناني ويقصد الكاتب أن رتبة القساوسة ورجال الدين ليست مقصورة على كل من هو يوناني، وذلك من باب السخرية.. المترجم

مقصورا على الهيلينيين لهداية الناس إلى فضل الروح القدس، وإذا ما كانوا كما يدعون هم «فرح الله» وكل إنسان آخر مشكوك به ولا يستحق تلك الدرجة.. فلماذا إذن تكلم الحواريون بكل اللغات عبر الروح القدس وليس باللغة الهيلينية «اليونانية» ويعظون كما أخبرهم المسيح (اذهبوا لكل العالم وعظموا وبشروا بالأخبار السعيدة لكل الخلق) - (مرقص- سفر: ١٥-١٦) لا إلى اليونان «وحدها»، والآن وقد رأينا أن اليونانيين لم يتم اختيارهم بكرم الروح القدس لهداية الناس ولا هم «فرح الله» أو أحبهم إليه، كما يقولون ويدَّعون خاصة، فلماذا - إذا ما كانوا أولياء مخلصين لتعاليم المسيح - يقولون أن لهم الحق وحدهم في السيطرة على الناس الأرثوذكس ولماذا يعاملونهم كعبيد أو ما هو أكثر- وبصورة مخجلة - يعاملونهم كمتاع من أملاكهم؟

ودعنا نكشف موقف الكنيسة اليونانية الضعيف، إن البلغار والمصريين - يقصد الغجر - وصلوا إلى تلك الحالة من البؤس والمهانة حتى أننا لا يمكننا أن نجمع أطراف شجاعتنا ونقوم بتعليم أنفسنا، حيث دفعتنا أحكام الكنيسة إلى اليأس حيث بينت لنا عبر مجلسها «الموقر» أننا لسنا مسرة الله، ولماذا يلجأ المصريون إلى عقيدتين بل ثلاث في نفس الوقت؟ ذلك لأنهم - ورغم أنهم مسيحيون - غير مسموح لهم بالمشاركة في أسرار العقيدة وبقية المسيحيين يرتابون فيهم، وهذا هو السبب في لجوئهم لديانة أخرى برغم احتفاظهم بديانتهم الأولى، وبهذه الصورة ولكونهم مشتتين ويائسين لا يستطيع المصريون الاحتفاظ بمجتمع خاص بهم كما لايستطيعون الاهتمام بتعليم أنفسهم.

وسـوف تجدون أن هـذا هو ما يحـدث تمامـا للبلغاريين، وهنـاك مقالة نشرت في جريدة جايدا (العدد ١٥ السنة الثالثة) أثبتت أن أصولنا تعود لمصـر [1] وهـذا واضح من المهـارات التي نملكها وكذلك مـن لغتنا ومن مسـمانا gypsy - Egyptian لكننـا دفعنا دفعا إلـى اليأس وتحولنا إلى ما نحن عليه الآن، وكيف يمكن أن نكون أنصاف مسيحيين وأنصاف غير مسـيحيين فـي عقيدتنا ؟ وعلى أي مبدأ - وفقا لما قاله قداسـة الأب - يصرح بأن المصريين لا يشـكلون سـرورا للرب ؟، لو أن قداسـته بنى دليلـه هذا على حقيقـة أن المصريين قد قاموا بتعذيب الإسـرائيليين ذات مـرة - أولئك الذيـن ارتكبوا الخطيئة ولـم يقبلوا الديانة المسـيحية، ألا يمكنه أن يرى ما يقوله الإنجيل «لذا فأي إنسان يكون في المسيح، سيخلق مـن جديد، فالقديم ذهب، والجديد يأتـي» (كورنثيا - ٢، ٥، ١٧) فإن الأمـر لو لـم يكن كذلك لكان اليهـود والحواريون أولى بالشـك والريبة طالمـا كانوا تقريبا أعداء الله، الذي عوقبوا من أجل مخالفته مرات عديدة بل إنهم قتلوا الرسل الذين بعثهم الله وصلبوا ابنه المحبوب، «لكن المسيح عيسى جاء إلى العالم لينقذ الخطاة» (تيموثي ١- ١٥ : ١).

وأيـا مـا كانت الطريقـة التي حدث بها ذلك، سـواء مـن الجهل أو من

1 - مـع كامـل التقديـر للأصـول العرقية للغجـر إلا أن المذكـور هنا ليس بحثـا علميا وأنثروبولوجيا لأن الدراسـات العلمية أثبتت أن أصول الغجر تعود إلى وسـط آسيا ارتحلوا غرباً هروبا من التتار. المترجم

عداء وأوهام ذاتية شعر بها قداسته تجاه المصريين،ولأجل معاقبتهم منعهم من أداء شعائر الدين، كيف يمكن لأتباع حواريي المسيح أن يعترضوا على ما حدث ؟ نعم..... فهم سوف يعبرون عن بالغ أسفهم، لأنهم لا يستطيعون تغيير أدنى أمر مما أورثناهم إياه !، وكنا سنتفق معهم في ذلك لو كانوا تابعين مخلصين للحواريين، لولا أن ذلك ليس فقط لا يمثل واجب الحواري الوفي وإنما هو على عكس ما يجب أن يفعله، بالإضافة إلى أننا نرى أن كل ما يؤدي لفائدة أولئك اليونانيين بغض النظر عمن ابتكره أو أوحى به فهم يقبلونه على الفور، ولا يعترفون بما لا يفيدهم ولا بأي شيء لا يمايز بين الناس داخل إطار الدين المسيحي، رغم أن المسيح عيسى قد نهى عن ذلك التمييز بنفسه، وبتلاميذه حين قال «لذا لا يوجد اختلاف بين اليهود وبين أبناء الأمم ولا بين العبيد والأحرار ولا بين الرجال والنساء وكلهم واحد في اتحادكم بالمسيح عيسى» (جالاتيا ٣ ٣ : ٢٨) والآن هيا نرى لماذا لا يمنح اليونانيون الحقوق الدينية للشعوب الأخرى ولكن يقومون بتدميرهم بعنف، وأنا لا أملك القدرة على البحث في أسباب معاملة اليونانيين للبلغار بهذا الأسلوب، وعلى كل حال فأنا هنا لغرض آخر مختلف أريد أن أُبيّن ما يحدث مع المصريين، الذين لا يوليهم أحد أي اهتمام، وأريد أن أوضح كيف ضاع إيمانهم وكيف أدى ذلك إلى مرضنا الأخلاقي، لقد ثبت أن الناس في اليونان عام ١٨٠٠ قبل الميلاد كانوا همجاً ومتوحشين يعيشون في الغابات والأكواخ والكهوف ويأكلون الجذور والنباتات البرية ولا يعلمون شيئا .عندما كان اليونانيون بلهاء، وكما نقول، يقتاتون على المرعى -أي كانوا متخلفين- وصل المصريون

إلـى درجـة عالية من التعليـم والثقافة .لكن أولئك أحدثـوا الاضطرابات في مصر ، وبسـبب ذلـك أبعدوا ألفا منهم وارتحلوا إلـى اليونان ، وجلبوا معهم فنونهم القديمة وأبجديتهم ، وبفضل المحاولات الدؤوبة من المصريين لتعليم اليونانيين المتوحشـين ،تم ترويضهم واختلطوا بالتدريج مع زوارهم المثقفـين واسـتقر الآخرون في أثينا حيث اختـاروا كيكروبس زعيما لهم وأثينـا عاصمـة لهم حيث اكتسـبوا اسـم الأثينيين وانسـجموا ووصلوا إلـى درجة تزيد أو تقل في الكمال الثقافي مقارنة بين الشـعوب الأخرى، التي تعيش ذلك الزمن ، وهكذا انتشـرت الاستنارة بين الشعوب الأخرى وهـو ما يفخر بـه اليونانيون اليوم بقولهم إنهم أضاؤوا العالم بثقافتهم ، ولعلمهـم أن العالم سـوف يكتشـف آجـلا أو عاجلا أن ذلـك التنوير لم يكونوا هم مصدره قرروا مهاجمة عقيدة المصريين الذين سـيصبحون عند ذاك مكروهـين من كل فرد ومن ثم سـيغرقون في يـأس كبير ثم يختفون من على وجه الأرض ، وقد ألح اليونانيون في ذلك وبسببهم منع القديس جريجـوري المصريين من الشـعائر فكيف لأولئك اليونانيين ألا يشـعروا بالعار حينما يصيحون في كل العالم بأنهم السـبب وراء انتشـار التنوير في أوروبا لهذا السـبب نفسه على الأوربيين أن يكونوا شاكرين لهم وأن يساعدوهم عند الحاجة ؟ عليهم أن يخجلوا وأن يخرسوا ، فإذا كان لهم أن يفخروا على الأوربيين بذلك فعليهم أن ينحنوا أولا وأن يقعوا سـجدا أمام أقدامنا ، لأن عليهم أن يقروا بأننا قد منحناهم التنوير «والثقافة» وأن يقوموا بواجبهم وهكذا يعطون مثالا في الإخلاص للآخرين .

التوقيع «مصري»

ويعد هذا الخطاب وثيقة قيمة تبين تطور الوعي الاجتماعي بين الغجر في بلغاريا في القرن التاسع عشر وكاتب الخطاب بجانب كونه من المتعلمين جيدا بالنسبة لعصره له معرفة كبيرة بكتابات الكتبة وفي الصحافة أيضا ويمكن فهم هذا الخطاب بدقة فقط في إطار التطور الاجتماعي المذكور سابقا في بلغاريا في مواجهة التبعية الدينية لليونان (البطريركية) وتعليماتها للكنيسة البلغارية التابعة لها ويعتبر ذلك المصري «المجهول» وهذا الصراع الكنسي حركة لحماية حق كل شخص في المساواة الدينية والمدنية وشعر المؤلف باتجاهات الاحتقار المتكرر للغجر التي كانت سائدة في المؤسسات المسيحية ذلك الوقت واستعرض مدى ظلم ذلك الاتجاه، ولكي يدافع عن الحق التاريخي للمصريين في حيازة مجتمع خاص بهم والاهتمام بتعليمهم بأنفسهم لجأ إلى جدل شبه علمي وكان في تلك الحالة مأخوذاً بمقالة سابقة مقتبسة من جريدة جايدا وكانت المصدر الوحيد المتوافر أمامه، ويوضح الخطاب بداية مرحلة جديدة من تطور الوضع بين بعض أعضاء مجتمع الغجر في البلقان خلال القرن التاسع عشر ويتشابه مع تلك المرحلة الجديدة عملية أخرى هي الخروج من الإطار «الداخلي» للمجتمع التقليدي بحثا عن مكانة مساوية في الواقع الاجتماعي الثقافي «الخارجي» الجديد. إلا أنه يخضع لمعايير وقيم الغجر، وتحدد الظروف التي تعيشها البلقان شكل هذه الأنشطة الاجتماعية الجديدة - ومثل باقي شعوب البلقان، كان الغجر يسعون بهمة شديدة لإيجاد ماضٍ باهرٍ لهم بالإضافة إلى خلق ميثولوجيا تاريخية قومية لدعم توجههم خلال نضالهم للخلاص المدني ويبقى سؤال واحد مفتوحا.. من

كان ذلك المصري كاتب الخطاب ؟ رغم أنه يبدو غير موجود في الواقع إلا أنه في النهاية تتضح إمكانية تميزه ويمكن البحث عن تفسير لذلك في المادة العرقية التي نشرها ماركو تسيبينكوف مع نهاية القرن التاسع عشر ففي وصف لنقابات مدينة بريليب يعلق على وجود نقابات متعددة للغجر منها (صانعو الحدوات وصانعو الكمان والحمالون) الذين كانت لهم أعيادهم الدينية الخاصة مثل عيد القديس اتناسيوس وعيد القديس أنتوني والسبب وراء كل ذلك هو الحلاق الغجري (اليانو مشيف) إذ كان لذلك الحلاق زبائن ذوو حيثية يحضرون إليه في محل عمله وتوصل بالتدريج إلى معرفة خلفية أولئك الزبائن جيدا ولم يخجل من كونه «مصرياً - غجرياً» لأن تلك الكلمة اشتقت كما كان يشرح من اسم مصر وقد أمل ذلك الرجل أن يصبح قسيسا للغجر ومرت سنوات عدة وهو يمتلئ بالأمل في تحقيق تلك الأمنية وظل يعمل وسط الغجر ناصحا إياهم بعدم شرب المسكرات وبضرورة الالتزام بالسلوك الكريم وبعدما اكتسب احترام الغجر أقنع ثلاث نقابات بالاحتفال بعيد القديس أنطوني وبمرور عامين أو ثلاثة نجح في أن يصبح قسيسا في تساريجراد عاملاً في خدمة أسقف بلغاريا «نستطيع أن نتيقن تماماً أن إيليا نوشيف كان هو المصري[1] الذي كتب الخطاب لمحرر جريدة مقدونيا وللأسف لم يعلم

1 - أريد إعادة التنبيه إلى أن كلمة مصري تستخدم هنا بديلا لكلمة غجري دونما مبرر تاريخي أو علمي. المترجم

أحد أيّ شيءٍ عن ذلك الشخص بعدما أصبح قسيسا لكننا واثقون أنه أصبح بين أوائل القادة لحركة الخلاص المدني للغجر ليس فقط في مقدونيا والبلقان وإنما في كل العالم أيضا.

٤-١٦ أول شاعرة غجرية «رومانية»

ظل السؤال عما إذا كانت جينا رانجيسيك -التي وصفها العالم النمساوي المجري هينريك فون فيليسلوكي باعتبارها أول امرأة شاعرة من الغجر حقيقة أم لا- سؤالا بلا حل لفترة تعدت القرن وقبل أن يستطيع المرء إجابة السؤال، عليه أن يُقيّم الإرث العلمي الخصب لفيليسلوكي نفسه فخلال عصره لم يكن محترما في الدوائر العلمية واحتقره معاصروه لارتباطه بالغجر إذ عاش وتنقل معهم في عدة مناسبات لفترات قصرت أم طالت وقد اتهمه عدد من المؤلفين - حديثا - آخرهم كان جوزيف ليبا بتزييف المادة العلمية التي سجلها وقام بنشرها وهي مادة نادرا ما يستخدمها الأكاديميون هذه الأيام فلو كان لنا أن نصدق فيليسلوكي نراه قد قابل جينا رانجيسيك في سلوفاينا التي كانت عندئذ ضمن مواطني الإمبراطورية النمساوية-المجرية عندما كانت عجوزا تماما... وغير قادرة على جمع السيرة الزمنية الدقيقة لحياتها وقد ماتت في ١٧ مايو عام ١٨٩١ م وقد تم تقديم جينا له على يد القنصل المصري في سومبور (فوي فودينا اليوم) الذي اشترى بعد وفاتها ثلاث كراسات من أقاربها تحوي ٢٥٠ قصيدة لها كتبت باللغة الرومانية التي هي لغة الغجر وقد نشر بعضا من هذه القصائد فيما بعد فيلسلوكي نفسه ودون تعليق على

مدى صدقها أو أصالتها وبذلك يمكننا أن نلمس باختصار حياة جينا كما وصفها فيلسلوكي إذ بنى تقريره على محادثات جرت له معها وحول شعرها ومعظمه يعد سيرة ذاتية.

وليس واضحا بدقه أين ومتى ولدت جينا إذ تعود ذكرياتها إلى ثورة المجريين عام ١٨٤٨م عندما كانت في سن العاشرة حينما كانت ذلك الوقت في مدينة فاراجدين في كرواتيا الآن.

ومن هناك ومع رجال قبيلتها من مجموعة الغجر الرحل «نيفيليا» هربت إلى صربيا لأن الكروات أرادوا دفع الغجر للحرب ضد المجريين، وعند سن الثانيةٍ عشرة تقريبا في بلغراد انفصلت عن جماعة الغجر التي كانت ترتحل معهم أثناء مطاردة الجنود الأتراك لهم بسبب الشك في سرقة قاموا بها وعبرت نهر الدانوب وهربت إلى المجر وقابلت جينا حينها تاجرا أرمينيا ثريا في القسطنطينية فتبنى الفتاة وأخذها معه وهناك أرسلها إلى مدرسة أرمينية مدة ثلاث سنوات حتى إنه استأجر لها رجلا ألمانيا كي يعمل مرشدا لها وكان الأرميني يعيش مع أخيه الذي وقع في حب جينا فقام بخطبتها وبدآ العيش معا دون زواج وهنا بدأت جينا تكتب الشعر لأنها وفقا لما قالته في شعرها «أنا سعيدة جداً مع رجلي الشيخ» لكن سعادة الأسرة دمرها شاب ألباني أنيق اسمه «جريجور كوراهون» حيث أقنعها بالهرب معه بادعائه أن السلطان أمر بقتل الأرمنيين في القسطنطينية فذهبا إلى أدريانابول حيث أفادها ذلك الألباني باستحالة عودتها إلى منزلها لأن زوجها قد سَرَق وقتله الألبانيون وإذا عادت يمكن أن يُقبض عليها باعتبارها شريكة في الجريمة. استقر جريجور وجينا

في ادريانابول وعاشا معاً أربع سنوات، عمل خلالها جريجور كمرافق للقوافل مصطحبا إياهم إلى حدود المجر وفي الطريق كانت القوافل يتم نهبها بواسطة قطاع الطرق الألبان الذين كانوا على صلة بجريجور وتؤخذ الأسلاب إلى الأماكن الآمنة وسط الجبال الألبانية وخلال معظم تلك الرحلات كانت جينا بصحبة جريجور الذي أغرقها في الهدايا الثمينة لكنهما تعاركا بسبب محاولتها الهرب إلى القسطنطينية وجرحها في ذلك العراك بشدة وخرجت بسبب ذلك بندبة عميقة في وجهها ظلت معها بقية حياتها.

ندم جريجور على ما فعل ولكي يحل السلام بينهما وعدها بالبحث عن أقاربها في صربيا وإحضارهم لها فترك جينا مدة ثلاثة أشهر مع رجل مجري كان قد انتقل هناك بعد قيام الثورة المجرية ووقعت جينا في حب رجل آخر وهو صربي ذكرته في أشعارها لكن ذلك الصربي سرقها ثم هجرها وظلت جينا تهيم على وجهها حول أدريانابول عدة أسابيع تعاني الجوع في أسمالها البالية ثم يحدث أن تقرر الذهاب بحثا عن زوجها الألباني جريجور الذي وجدته على مبعدة ساعات قلائل خارج البلدة وتوصل إلى أقربائها وكانوا قد أقاموا خيامهم بالفعل هناك وبدأت الاحتفالات فور عودتها وبعد عدة أسابيع من الاحتفال والعراك ارتضت جينا السلام مع جريجور الذي أهداها كثيرا من العطايا الغالية ثم رحلت الجماعة عبر بلاد البلقان مدة شهرين وعندما وصلوا ألبانيا وجدوا جريجور عند شاطئ البحر فاصطحبهم جريجور إلى حدود العرب حيث منحهم نقودا وهدايا قيمة ابتاعوا بثمنها ٦٠٠ خنزير وعاشوا

سعداء مدة طويلة ورفضت جينا الذهاب مع جريجور والمجموعة وبقيت جينا مع أهلها وكانت تقترب من الثالثة والعشرين من عمرها في ذلك الوقت وبدأت حياة بدوية متنقلة ثم تقابل سيدا مهذبا من فيينا يشتري منها قصائدها وخلال سنوات ترحلها لم تكتب شعرا وإنما قضت وقتها آملة أن يعود إليها حبيبها الألباني وبعد عام لاحق عندما بيعتْ هداياه أو أُكلتْ هربَتْ من أقاربها وذهبت إلى ألبانيا للبحث عنه فاكتشفت أنه هارب إذ تطارده السلطات التركية بسبب السرقة ثم انضمت إلى أقاربه في إيطاليا مصحوبة بامرأة ألبانية صغيرة، رحلت جينا نحو إيطاليا عبر البحر وبحثت عن جريجور في كل جنوب إيطاليا حتى وصلت نابولي ومن هناك ذهبت إلى سيراقوصه جزيرة في صقلية حيث قابلت يهوديا ثريا في رومانيا هو جاكوب هورنيشتين وكان تاجرا يصدر الخمر الصقلي إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ويتاجر في المزخرفات والمزينات المستوردة من باريس إلى شمال أفريقيا حيث يملك أخوه الأصغر محلا في المغرب، كان صديق جينا الجديد رجلا مثقفا له اهتمامات بالفنون والعلوم وخلال السنوات الست لإقامتها في صقلية صاحبته جينا في رحلاته التجارية حول البحر المتوسط وفي شمال أفريقيا استأجر جاكوب هورنشتين صبيا من الغجر اسمه بيتروس كانداليدس كي يصبح خادما لجينا وكان أجداد بيتروس قد انتقلوا إلى أفريقيا من اليونان وبعد سنوات ست لاحقة بدأت المتاعب إذ رحل جاكوب في رحلته التجارية المعتادة تاركا جينا خلفه وكان ذلك عندما بدا بيتروس يكبر فبدآ يعيشان معا بحرية كالغجر وعند اكتشاف جاكوب ذلك انتابه غضب شديد فأرسل بيتروس

إلى محل أخيه في المغرب هنا هربت جينا من المنزل ساعيةً للانتحار لكن حينما ألقت بنفسها في البحر أنقذها بعض البحارة العابرين فعادت إلى جاكوب ثم أصابها المرض الذي أدى لأن تفقد جمالها، وفي وقت لاحق ذهب جاكوب للقاهرة مع جينا للتجارة حيث أصابه المرض وبناءً على نصيحة الأطباء عاد ليعيش في القسطنطينية ووصلت أختاه قادمتان من بوخارست للعناية به، وبدأتا النزاع مع جينا وفي ٢٣ مارس ١٨٦٦ مات جاكوب هورنشتين وأُخذت جينا في نفس اليوم إلى السجن متهمة بتسميمه وأكد تشريح ما بعد الدفن أنه لم يمت مسموما لكن جينا ظلت في السجن لأن أقارب جاكوب كيما يستمرون في الاحتفاظ بميراثه اتهموها بالسرقة والاحتيال، وقضت جينا ثلاثة أشهر في السجن ثم أُفرج عنها وأُطلقت لتتسلم ١٠,٠٠٠ دوكا نمساوية وأودعت جينا النقود لدى صرّاف أرميني وعاشت في القسطنطينية كامرأة ثرية لكنها بعد عام ونصف بعد ذلك قامت بسحب نقودها ورحلت إلى صربيا بحثا عن أقاربها وقضت معهم يومين فقط وزعت خلالها ١٠٠٠ دوكا بينهم واحتفظت بـ ٨٠٠٠ دوكا لنفسها ثم غادرت صربيا إلى باريس وهناك أنفقت كل ميراثها خلال عامين وقد عاشت لفترة مع رجل من ترانسلفانيا ثم تراكمت عليها الديون وعلى ذلك تم ترحيلها إلى صربيا بواسطة السلطات المحلية وقضت العشرين سنة الأخيرة من عمرها مع أقاربها تعيش حياة متنقلة بدوية وماتت عام ١٨٩١ م وهنا واحدة من قصائد جينا مترجمة عن الرومانية وعلينا ألا ننسى على كل أن مصداقية وجودها تظل خاضعة للشك.

قصيدة جينا رانجيسيك..........مأخوذة من

Wlislocki Aus dem inneren Leben der Zigeuner برلين عام ١٨٩٢

سيئةُ الحظ وتعسةْ
كانت كلُ أيامِيَّ الماضية
لأن اللّٰه لم يمنحني
حتى ولا هِبَةً حلوةً واحدة
بحثتُ هنا وهناك
وتحولتُ بلا هديْ
فلم أجدْ أحداً
يا لسوء حظي
حينما أكونُ فوق التلالْ
أتمنى أن أكونَ في الوادي
وحينما أنامُ في الحقولْ
احلمُ بالنومِ فوق صفحةِ البحرْ
ياه........ وأن أكون نجمةً
وسط ظلمة الليلِ
وأن أرتقي للقمرْ
فأنا مجنونةً بالحب
ولو كنتُ أجملَ وردةٍ في الكون
عاليةً فوق جبل هيموس
إلا أنني مجنونةٌ بالحب

فتشقى الأماكنُ بالذهب
بحبٍ كبيرٍ وخوف
أتشوق لرجوعك
ولتدع الأيام تمر سراعا
حتى تعود لي من جديد
تذهب أو تقيم
لما أعيش في شك يقيم
أنا لا أدري...يا إلهي
هل سيتفهم إثمي...
عندما تكون نائياً في البعيد

٤-١٧ عبودية الغجر في مولدا فيا وفلاشيا

عودة إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر نجد أن الغجر في هاتين الولايتين العثمانيتين (مولدافيا وفالاشيا) كانوا يعيشون حالة قانونية تم تأكيدها عدة مرات تُسَميّهم عبيد التاج والمقصود الأمير أو الأديرة أو النبلاء، ولم يكن الشكل الذي اتخذته العبودية بقدر البساطة التي تمثلها المؤلفون إذ كانت غالبية الغجر يشكلون فئة «الفاتراش» وهم عبيد المنازل أي الخدم الذين يمتلكهم غالبا النبلاء والأديرة وكان تشغيلهم يتم أساسا في الزراعة ومارسوا حرفا متعددة وعملوا خدماً أو موسيقيين وفي أعمال منزلية متنوعة وكانت ثاني أكبر الفئات في الغجر فئة «اللايش» وهم المتجولون فرغم أن أولئك المدعين باسم «عبيد التاج» كانوا أحيانا مملوكين للأديرة أو النبلاء وكبديل لرفع الالتزام السنوي كان يُسمح

لهم بالعيش في حياة بدوية متنقلة وذلك لممارسة حرفهم التقليدية مثل الحدادة وصناعة الأوعية النحاسية وإصلاحها والأدوات الخشبية والأمشاط وقضبان النوافذ والسلع الأخرى بالإضافة إلى عملهم كأجراء موسميين وعاش نفس الوضع الاجتماعي فئتا الأوراري والروداري الذين كانوا يعملون في تعدين الذهب في الجبال مع بعض القبائل الأخرى التي عملت بحرف مختلفة.

وهكذا تبرز لنا صورة مناقضة عن حالة الغجر العبيد في مولدافيا وفالاشيا فهي من ناحية تصورهم محرومين من الحقوق المدنية وأن عددا كبيرا منهم تم استغلالهم ببشاعة وبيعوا كالسلع ونالهم أفظع أنواع العقاب وكان الإعدام الجماعي بالخازوق واحدا من الأساليب التي واجهوها في أغلب الأحوال، ومن ناحية أخرى تمتع العبيد بميزات متنوعة لم تكن متوافرة لأغلب فئات المجتمع المحلي خاصة القرويين الرومانيين، وعلى أي حال كان الغجر يعتبرون طبقة اجتماعية دنيا ككل عدا حالة الغجري ستيفان رازفان الذي حكم كأميرٍ لمولدافيا خمسة أشهر عام ١٥٩٥ م.

ومع استمرار تأثر ولايتي مولدافيا وفالاشيا بالرأي العام الأوروبي ازدادت الضغوط لإلغاء الرق خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد حدد التشريع الصادر عام ١٨١٦م أربع فئات من المواطنين؛ النبلاء والأحرار والعبيد والمُحَرَّرين، وكانت الفئتان الأخيرتان من الغجر أساسا، وسياسة تحرير العبيد نص عليها دستور ١٨٣١م بفالاشيا وكذلك القوانين المدنية لولاية مولدافيا عام ١٨٣٣ م، والتي جاء فيها لأول مرة أن الغجر في الولايات المحلية قد تم إقرار حق كونهم أفرادا في المجتمع

بدلا من اعتبارهم ملكية خاصة، وفقا للقانون الروماني الذي تأسس على مبادئـه النظام القانوني للمحليات، إذ لو قُتـل أحد من العبيد فلن يفلت الفاعـل دون عقـاب وفي الوقت نفســه ظل العمل التجاري مســموحا به للغجر بما في ذلك البيع داخل الأسواق العامة إلا أن منع الزواج بين الغجر والأحرار اســتمر في التطبيق ويصبح أطفال مثل هذا الزواج - إن وقع - عبيدا، وكانت هناك محظورات أخرى مستمرة في التطبيق.

وفــي ظل شــروط معاهــدة باريــس التي أنهت حــرب القــرم كان على الولايتين أن تهجرا العبودية.. ، ففي مولدافيا عام ١٨٥٦ م تم تقديم قانون تقوم الدولة - تنفيذا لبنوده - بشراء العبيد من مالكيهم بشكل جماعي وتحررهم، وتم تمرير قانون في فالاشيا في ذات الوقت تقريبا، وقد حدثت تلك العمليات بصعوبة كبيرة وأحد أســباب تلــك الصعوبات كان عدم رغبة عدد كبير من الغجر في تغيير حالاتهم المدنية من عبيد لأحرار وهناك العشــرات من الوثائق التاريخية التي تؤكد ذلــك، فالعديد منهم كان في حالــة أفضل بالتزامه بدفع ضريبة ســنوية ثابتة مــن أن يتحول إلى مواطن عادي عليه التزامات ضريبية أكثر بلا ملكية مع حرية محدودة الحركة.

وفي عام ١٨٥٧ م في فالاشيا تم شراء ٣٣٢٦٧ أسرة من الغجر وتحريرها من العبودية كان منهم ٦٢٤١ من عبيد الدولة و ١٢٠٨١ من عبيد الأديرة و ١٤٩٤٥ مملوكين للأفراد، أما الإحصائيات الخاصة بمولدافيا فهي ناقصة ولكن التقديرات تصل بالعدد إلى ٥٠٠٠٠ أســرة وإذا كان متوسط عدد الأســرة خمســة أفراد يكون من ذلــك وجود ٢٥٠٠٠٠ غجري عاشــوا فــي الولايتين فــي ذلك الوقت، ويُعد عام ١٨٦٤ م هــو التوقيت النهائي

للقضاء على العبودية في هاتين الولايتين حينما وحد الدستور بينهما في دولة واحدة هي رومانيا .

٤-١٨ هجرة الغجر

كان غجر مولدافيا وفالاشيا (رومانيا حاليا) بأحوالهم المدنية الخاصة هم القوة الرئيسية وراء ما يسمى «الغزو الكبير» لجماعات الكالديراري لغرب أوروبا ، ويجب أن نشير -فعلاً- لبعض الفئات وليس إلى المجموعة كلها طالما كان هناك العديد من جماعات الغجر من المحتمل أن تكون ذات علاقة وسط فئات «اللاشي» منهم ، بينما نجد فئتي الأوراري والروداري من بين الأسماء العامة للقبائل ، قد حافظوا على التقاليد القديمة لحياة البدو الرُحّل ، وخلال العمليات الطويلة التي تمت للقضاء على العبودية في الولايتين ، ارتحل عدد كبير إلى ترانسلفانيا وغرب بانات في الإمبراطورية النمساوية المجرية حيث وجدت جماعات كبيرة من الغجر الرُحّل لها علاقة قرابة بهم - وكان ذلك التركيز في وجود الغجر نقطة البدء لهجرات غجرية أخرى ساعدت بالتدريج على تحرك أعداد كبيرة منهم كانوا مستعدين للاستقرار في وسط أوروبا ، وباستمرار تحركهم واختراقهم أراضٍ جديدة لا يمكن البحث عن السبب الشامل القاصر وحده على هذه الهجرات الجماعية المتوالية في القضاء على العبودية في ولايات شمال الدانوب رغم أن ذلك السبب - القضاء على العبودية - كان العامل الفعال والمساعد الذي أطلق ضربة البدء لعملية كانت نتاج تطورات اقتصادية واجتماعية عامة خلال تلك الفترة ، وقد أدت الثورة

الصناعيـة وبدايـة العصر الحديث فـي أوروبا إلى ظهـور الحاجة لتغيّرات أساسـية في حياة الغجر الرُحل، وكان عليهم إيجاد أنماط جديدة للعمل وللهـروب من الحـدود الإقليمية المكانيـة للمقاطعات التـي تنقلوا فيها تقليديا في حالة ارتحالهم - وتزايدت معدلات هجرة الغجر خلال الحقب الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد وصلوا إلى ما وراء أوروبـا، وكان ذلك يؤدي بصورة مطلقة إلى تغيرات بارزة في توزيع السـكان مـن الغجر حـول العالم. وكانت القـوة الحركة الرئيسـية وراء هجرات الغجر خلال هذه الفترة القبائل الكبرى المكونة من الكالديراري واللافـاري بالإضافة إلى بعض مـن ذوي الصلة بناطقي اللغة الرومانية من مولدافيا وفالاشـيا، وقد حدثت موجة أخرى كبـرى من الهجرة لجماعة الـروداري -أو الوداري- المعروفة في وسـط أوروبا وفي أماكن أخرى من العالم باسـم «بيشـي» ويتحدثـون الرومانية ويظنون أنفسـهم رومانيين وليسوا غجراً.

وكانـت الهجـرات تتم بشـكل رئيسـي من الشـرق إلى الغـرب لكن جماعـات الغجر المختلفة اتخذت طرقـاً متعددة لتصل إلى مدى بعيد من الأراضـي الأوربية بالإضافة إلى اشـتراك جماعات صغـرى من الغجر في عمليـات الهجرة تلـك، وبذلك تزيد أعداد المرتحلـين فيزيد نمط الهجرة تعقيداً، وعلى سبيل المثال ظهرت عام ١٨٩٧م في ضواحي مدينة وارسو جماعـة غجـر من الجزائـر وصلـوا للمنطقة عـن طريق القوقاز وروسـيا ووصلت في السـنة نفسـها جماعات أخْرى من الغجر من بغداد إلى ذات المدينة ثم غادروها بعد قليل إلى جهة غير معلومة.

يمر طريق هجرة الغجر الرئيسية من مولدافيا وفالاشيا عبر ترانسلفانيا ثم ينفصل إلى طريقين فرعيين، إذ يمضي الطريق الأول باتجاه الشمال الشرقي عابراً المجر وبولندا حيث يلتقي المهاجرون بقبائل ذات قرابة من الذين اتخذوا الطريق الشرقي ووصلوا الآن إلى روسيا وقد بقي بعضهم في بولندا والمجر في حين ارتد الآخرون غرباً بطريق ألمانيا وهولندا حتى وصلوا لفرنسا وبريطانيا العظمى وأسبانيا، ومر الطريق الثاني ببلاد البلقان وإيطاليا –حيث استقر بعض الغجر مرة ثانية– ثم وصلوا لفرنسا وبريطانيا العظمى ثم إسبانيا، وكانت هذه البلدان الثلاثة مكاناً شائعاً للقاء جماعات الغجر الذين يصلون هناك بواسطة طريق من الطرق المذكورة، ثم يتوجهون في جماعات إلى أستراليا وكندا وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية. وعبر أحقاب عديدة متلاحقة وهم يشقون طريقهم عبر عدد من الأراضي الجديدة، استقر الغجر في كل قارة، وقد استخدموا ليس فقط أساليبهم التقليدية في الترحال والانتقال وإنما استخدموا وسائل جديدة في التنقل والتحرك من منجزات العصر مثل القطار والقوارب.

وبهذا بزغت صورة جديدة مختلفة تماماً لمجتمعات الغجر حول العالم، صورة استكملت ملامحها النهائية في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الفصل الخامس

نهاية الإمبراطورية العثمانية

بعد ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ تم تقييد سلطات أسرة السلطان في الإمبراطورية العثمانية بصورة ملحوظة، واتخذت البلاد طريق الإصلاح السياسي الذي لم يؤت ثماره مبكراً، وقد عانت الإمبراطورية من كارثتها الثانية خلال الحرب العالمية الأولى. فباعتبارها ضمن الجانب الخاسر ونتيجة لمعاهدة سيفر ١٩٢٠م كان عليها أن تتحمل فقد العديد من الأراضي، وبعد الحرب اليونانية التركية ١٩٢١ - ١٩٢٢م والتي انتهت بمعاهدة السلام في لوزان، وضع مصطفى كمال قائد الدولة الجديد والمعروف باسم أتاتورك نهاية للإمبراطورية بشكل حاسم وبدأ يبني مكانها دولة عثمانية جديدة لتركيا، وبعد فترة احتضار طويلة، بدتْ النهاية الرسمية - حقيقة - لإمبراطورية عثمانية كانت ذات يوم عظيمة.

وهذه التغيرات النهائية انعكست على مصير الغجر الذين مازالوا باقين ضمن حدود الإمبراطورية وداخل ولاياتها التي خضعت لها ذات مرة في البلقان، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قام بعض غجر منطقة شرق ثراس- ليس المسيحيون منهم فقط بل والمسلمون كذلك-، بالانتقال إلى بلغاريا الغربية، إذ كانت هجرات الغجر تزداد حجماً حتى بعد توقيع معاهدة لوزان، ووفقاً لمواد المعاهدة التي أوجبت حدوث تبادل للسكان بين تركيا واليونان، كان على الأتراك في الأراضي اليونانية أن ينتقلوا إلى تركيا، بينما كان على اليونانيين في تركيا - وهم أساساً من الجزء الآسيوي من الدولة - أن ينتقلوا إلى اليونان.

وقد انزاح كثير من الغجر وسط تلك الحركة السكانية، فهاجروا إلى كلا الجانبين، وبذلك دخلوا أراضيَ جديدة رغم أن بعض المسلمين ظلوا باليونان ونتيجة لتلك التغيرات ظل الغجر باقين بشكل دائم ضمن الحدود الجديدة لولايات البلقان ذات الأمة الواحدة.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أضحى المصير التاريخي للغجر وتطور وجودهم كجماعات اجتماعية متداخلاً في أنسجة غالبية السكان لتلك البلدان ؛وقد انطلقت كل ولاية من البلقان في طريقها الخاص، تقوم بتجربة تطور نظمها السياسية والاقتصادية المتعددة بالإضافة لتوجهات حكومية مختلفة تجاه الغجر، وقد بقي إرث الإمبراطورية العثمانية – على أي حال – قائماً بأشكال متنوعة، سواء في صورة الثقافات العرقية الموجودة مثل ثقافة الإسلام والعادات المتعلقة به والتقاليد التي ورثها عدد كبير من الغجر في بلاد البلقان، أو في صورة تأثير التقاليد التاريخية والثقافية للعثمانيين الذي مازال راسخاً في حياة أفراد الولاية البلقانية.

أما الحروب والتغيرات المتكررة للحدود فقد تواصلت حتى اليوم، وأبرز مثال حاضر هو تفكك يوغسلافيا وتكوين دولة جديدة، وكان لكل هذا تأثير ما على الغجر ودفعهم لهجرات جديدة.

٥-١ رعب كوسوفو.... التركة العثمانية

كانت حالة الغجر – دائماً – في البلقان هي حالة الدخيل على المجتمع كما وضح في هذه الدراسة، سواءً ولدوا مسلمين أو مسيحيين، مُرْتَدّين أو

متكرري الارتداد إذ لم يقبلهم رجال الدين أو أي من أصحاب العقيدتين[1] وقد دعمت الدولة العثمانية ذلك بما فرضته على الغجر كحالة قانونية وضريبية خاصة، مواصلة بذلك - كاحتمال - ممارسات كانت قائمة في الدولة البيزنطية.

كان التقدير يوجه للغجر لمهارتهم في الجيش وفي العزف الموسيقي لكنهم نادراً ما احتلوا مناصب رسمية، إذ أظهرت الصفحات السابقة أن الغجر كأي فرد آخر قبل أيام رفاهية الدولة، أبعد ما يكونون عن الكسل وكان عليهم أن يعملوا ليكتسبوا عيشهم من بدو متنقلين باعوا الحليب لفلاحي القرى إلى عمال المناجم في البوسنة وفالاشيا. وكان أولئك المسمون رؤساء الغجر أو جامعو الضريبة نادراً ما يعينون من داخل الجماعة، وحل بهم نذيرُ شرٍ بحدوث مذبحة كوبريف شتيتسا للمسلمين الغجر.

حيث نظر الأهالي في بلغاريا إلى كل رجل وامرأة وطفل من الغجر كمشاركين في الحكم التركي المتعسف، فأحرقوا منازل الغجر لدفعهم إلى إخلاء القرى في الربيع، وقد رأينا أحداثاً مشابهة في رومانيا مع نهاية القرن العشرين وسط الصراع على الأراضي المقرر خصخصتها. وتواصلت حالة الانعزال حتى القرن التاسع عشر، وخلال الحرب العالمية

1 - هذه ملحوظة غريبة فالإسلام لا يمنع أي إنسان من اعتناقه، لأي سبب كان عرقياً أو اجتماعياً أو مادياً والإسلام يُبنى فقط على مجرد قبول أصوله الخمسة المعروفة . المترجم

الثانية قام الغزاة الألمان بقتل الغجر في صربيا، ثم بواسطة الفاشستيين الكروات في البوسنة وكرواتيا، عندما نشب الصراع الحالي في البوسنة كان الغجر أول من تعرضوا «للتطهير العرقي» في بعض المناطق وفقاً لاصطلاح العصر الحديث، وحدث ذلك عام ١٩٩٢م بعدما قامت قوات الناتو بغزو كوسوفو وأعيد اللاجئون الألبان للإقليم فانقلب اللاجئون على الغجر لأن قليلاً من هؤلاء أبدوا تعاوناً مع الحكام الصرب الجدد. فتم طرد آلاف منهم من كوسوفو التي كانت يوماً قلب الثقافة الرومانية «الغجرية» وقد عمل الأتراك على مبدأ «فرق تسد» مع كل رعاياهم وعندما سقطت الإمبراطورية انكمشت حدود الدولة مع اتفاقية برلين ١٨٧٨م تاركة بعضاً من الأقليات في كل دولة جديدة، والبعض يقول إن تيتو وعد الغجر الرومانيين بدولتهم المستقلة لو قاتلوا بجانب مقاتليه، لكن ذلك الوعد - إن كان قد قيل - لم يتم تنفيذه أبداً. فبينما يمكن للصربيين في كوسوفو أن ينظروا إلى مواطنيهم في صربيا كموئل للدعم التماسك، ويمكن لبقايا اليهود في بريستينا الهجرة إلى إسرائيل، نجد الرومانيين «الغجر» التائهين بلا وطن لا يستطيعون العودة إليه.

وهكذا يتلكأ الإرث العثماني طويلاً على معاناة الغجر في يوغسلافيا اليوم.

ثبت بالأسماء والمصطلحات

أكشر	عملة فضية
أراش	متمرد - ثوري
أراشليا / أراكليا	جامع الضرائب
أسبر	عملة محلية
باكشيش	بقشيش، إكرامية
بادهوفا / باديفا	عقوبة / جزائر
باشبوزق	معدات مسلحة - غير منتظمة
بدل الأسكري	بدل العسكرية - بدل التجنيد
بدل النزول	ضريبة السكن - العقار
بيه / بيليري	بك - سنجق - حاكم
بير بيلييك	ولاية - إيالة - مقاطعة - صغيرة
ببيليربيه	ما فوق البك - أدنى من الباشا
قادي	قاضي - مسؤول قانوني
قاديليك	منطقة تطبيق القضاء
شيرى باش	جامع ضرائب المزارعين
شيفليك	مزرعة
ديفشيرم	قرابة الدم - خدمة تجنيد للمسيحيين
جيزيند	رُحَّل
جروت	عملة فضية كبيرة الحجم
هايروك	قاطع طريق
هايروتين	متمرد - ثوري
إيسبنشي / جيزي	جزية
جامباز	تاجر خيول
جانيساري	الانكشارية
جيماعت	جماعة

جيماعت باش	مسؤول الضرائب بالجماعة من الغجر
جيريوم جينايت	غرامة – جناية
كاشكون	ضريبة
كافتان لوك	وكيل
كايم مقام	قائم مقام
كاتون	جماعة من الغجر الرحل
كيهاي / كيتودا	عمدة / منتخب لقرية
كيمان	كمان / آلة موسيقية
كوربان بيرام	عيد الأضحى
كوى	قرية
كروفنينا	رسم في أول ليلة الزواج
ليفا	إقليم / سنجقية
محلة	محلة / حي
ميريل	قائد
ميرليفا / ميرليفاش	قائد عام
ميرميران	ضابط كبير
موتافاريك	رجل بلاط / نبيل
ميولك	أراضي للسلطان
تاهيا	أرض / مقاطعة لها قاضٍ
أودا	مجموعة – انكشارية
أوجاف	مجموعة إمداد الأفراد للجيش
بوريز	ضريبة
بودار	غفير / حارس
راتاس	عامل مياومة
رعاية	الرعايا / الرعية في غير المسلمين
رسمي أروش	رسم زواج / ضريبة عرس

رسمي يشفت	ضريبة الأرض للمسلمين
رسمي – ى – فلورس	ضريبة الأسرة
سنجق	سنجقية / إقليم أصغر من الولاية
ساري جماعة	رئيس جماعة – تدفع الضريبة
ساري عسكر	رئيس جماعة جنود
سباهي	الضابط له خراج السلطان من أرض خاصة
تيريت	ضريبة
تيمار	أرض خصصت لأرستقراطية عسكرية
تيموريوت	لضابط المسؤول عن إحدى أراضى التيمار
فاكوف	أرض أوقاف لأعمال الدين
فاتراشي	قن الأرض
فالي	والي
فيلايت	ولاية
فيزير	وزير
فوي نوك	جندي
ياماك	وحدة عسكرية معاونة
يوفا	ضريبة
زاييم	زعيم عسكري / قائد عسكري يشرف على زمام
زابتي	فصيلة
زياميت	زمام / أرض هبة لكبار الدولة



كتاب
العربية
الترجمة (٢)